4 وسبعون

الكتاب: 4 وسبعون

المؤلف: نواف خلف السنجاري

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ٢٠٢١

ISBN: 978-9922-9519-9-7

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ( ) لسنة ٢٠٢١

تصميم الغلاف: هيثم الشويلي

الإخراج الداخلي: فاطمة خضور

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الدار: بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من الاشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية.

4 وسبعون

رواية

نواف خلف السنجاري

الوراثة
دار للطباعة والنشر

إهداء

إلينا نحن الذين نجونا من الإنقراض..

نحن الباقون رغم ٧٤ حملة إبادة جماعية،

ورغم كل المحاولات لإقتلاع جذورنا الموغلة في القِدم من

أرض هذا الوطن.

صوتك الليلةَ،

سكينٌ وجرحٌ وضمادُ

ونعاس جاء من صمت الضحايا

أين أهلي؟

خرجوا من خيمة المنفى، وعادوا

مرة أُخرى سبايا !

***

محمود درويش

– ١ –

أفعى سوداء كبيرة تقترب مني، تملأ المكان بفحيح مرعب، أتراجع قليلاً ثم أطلق عليها رصاصة، أقسمها قسمين يتمرغان بالتراب، ثم لا يلبث ان ينهض النصفان ويتحولان الى افعوانين كبيرين! أطلق عليهما ثانية فيتضاعفان الى اربعة ثم ثمانية، أمزقها بالرصاص فتصير مئات وآلاف الأفاعي تتقدم وتهجم علي، أنسحب وأسقط أرضاً، تغطيني الأفاعي فأصرخ عالياً، وأنهض فزعاً من نومي.

هذا الكابوس يطبق على صدري منذ اسبوع، خرجت الى المطبخ، فتحت باب الثلاجة، وشربت كأساً من الماء البارد، تأكدت أن المبردة مملوءة بالماء، ثم دخّنت سيجارة مجّيتها بعمق ونفثت دخانها في الهواء فتحول الدخان الى اشكال هلامية لا معنى لها، كنت أراقب الدخان ببلاهة، فجأة يتحول الدخان الى وجه رجل عجوز بلحية بيضاء يبتسم لي! أنفض رأسي فيتلاشى وجه العجوز ويعود الدخان ليصير صوراً لا معنى لها. أرمي عقب سيجارتي وأدوس عليه بنعالي كأنني أسحق عقرباً او صرصار، ثم أعود الى الغرفة وأستلقي فوق السرير محاولاً النوم.

أفكر مع نفسي:

– ماذا لو هاجمتنا الأفاعي السود كما في الكابوس؟ أحلامنا الجميلة هل يلتهمها هذا الغول الأسود القادم من مجاهل الصحراء، متعطشاً للقتل والدماء ومحو الحضارة؟ منزلنا الجميل، قصصي وقصائدي

مـاذا سـيحل بهـا؟ كتبـي، صـوري، ذكريـاتي، اشـجار الزيتـون، الحمـام، الفراشات، الأغاني، وصوت فيروز..؟

لا أعـرف ان كنـت قـد غفـوت أم لا؟ لكننـي اسـتيقظت علـى كـل حـال، كانـت الشـمس لمَـا تشـرق بعـد، وقفـت فـوق الشـرفة المطلّـة علـى قريتـي الجميلـة، نظـرت الـى بسـتان الزيتـون بمحبـة عاشـق، ابهرتنـي شـجرة التـوت الضـخمة التـي زرعتهـا بيـدي، وابتسـمت.. كـم تشـاجرنا انـا وجـدي مـن اجـل هـذه التوتـة؟ كـان مصـراً علـى قطعهـا لأنهـا صـارت عملاقـة تمنـع الضـوء عـن اشـجار الزيتـون، فأعارضـه واقـول لـه ضـاحكا إذا قطعتهـا سـأنتحر! فيضـحك جـدي ويقـول: لا اسـتغرب ان تفعل اي شيء ايها المجنون.. تباً لك ولشجرتك...!

أنظـر الـى اشـعة الشـمس وهـي تتسـاقط كنثيـث المطـر فـوق وجـه القبـاب المنتصـبة فـي الميـدان، فتبـدو مثـل سـبائك ذهبيـة عملاقـة تحـيط بالقريـة وتحرسـها، سـبع قبـاب مخروطيـة ولا أجمـل، نسـميها نحـن ابنـاء بحزانـي بـ (سـبعة الميـدان). تتشـابه القبـاب فـي طريقـة بنائهـا: قاعـدة دائريـة ينبـع منهـا خطـوط مثلثـة تنتهـي بنقطـة علويـة تعطيهـا شـكل شـعاع الشـمس، وفـي القمـة قطعـة نحاسـية كأسـية الشـكل ودائريـة، يُـربط بهـا قطـع مـن قمـاش السـاتان الملّـون كـل هـذا يسـتند الـى قاعـدة كبيـرة مربعـة الشـكل. كـل قبـة محاطـة بسـور مبنـي مـن الحجـر وبـين بنـاء القبـة والسـور المحـيط بهـا مسـاحة واسـعة يـدفن فيهـا الأهـالي موتـاهم فتحولـت الـى مقـابر، القبـة الوحيـدة التـي لـيس فيهـا مقبـرة هـي قبـة (بيـر

بـوب) فهـي مبنيـة فـوق مرتفـع تحتهـا اسـواق ودكـاكين، وداخلهـا بنـاء فخم وقاعات ومطابخ للمناسبات الدينية والتعازي.

***

أتنـاول فطـوري وقلـق الكـابوس يشـوّش أفكـاري، ألملـم اوراقـي واقلامـي، أضـعها بـلا مبـالاة فـي حقيبتـي الجلديـة وأخـرج بتثاقـل. فـي الطريق ألتقي مجموعة من شباب المحلة:

- هلو شباب

- أهلا استاذ سلام.

- اليوم مشغولين؟

- اي والله اسـتاذ، اليـوم جلبنـا الأصـباغ وقطـع القمـاش، سـترى محلـة (رأس العـين) بشـكل آخـر، لقـد اقتـرب موعـد افتتـاح مباريـات كـأس العالم.

- جميل.. اراكم حين أعود

فـي طريقـي الـى مبنـى الجريـدة التـي أعمـل فيهـا، صـادفت مجموعـة مـن الطـلاب يحملـون كتـبهم، ويجلسـون علـى دكـة امـام الغرفـة التـي يسـتخدمونها كصـف فـي الـدورات التـي يقيمهـا لهـم المدرسـون. وجميـع هـؤلاء الطـلاب نـاجحون مـن الصـف الخـامس الاعـدادي الـى السـادس الاعـدادي، وكلهـم أمـل فـي ان يحققـوا معـدلات عاليـة ويلتحقـوا بالجامعـة، مـا أجمـل الأمـل المرتسـم علـى وجـوههم الغضـة.. سـلمتُ

علـيهم وأكملـت طريقـي، وصـلتُ مبنـى الجريـدة، اسـتقبلتني انسـام بابتسامتها الملائكية، وقبل ان أُصبّح عليها، قالت:

– صباح الخير استاذ

– صباح النور.. هل تأخرتُ عليكم؟

– قليلاً.. سنصمم العدد ١٩ ونحتاج قصتك ليكتمل تصميم الصفحة الأدبية

– حسنا.. فتحتُ الحقيبة واخرجتُ ورقة واعطيتها القصة

– غريب استاذ؟ هذه اول مرة تجلب قصتك على الورق؟

– البارحة لم أنم جيداً، ولم يكن لي الوقت لأنضدها على الحاسوب..

– سلامتك استاذ.. لا عليك سأنضدها الآن

– شكرا

دخلتُ مكتبي، ورميتُ نفسي على الكرسي، كنت اشعر بصداع وقلق وارهاق، جاءت ياسمين مبتسمة وهي تحمل فنجان القهوة الذي احبه:

– اليوم صنعت لك قهوة تختلف عن كل يوم، وضعت لك قليلا من الهيل جربها

– شكرا ياسمين قهوتك طيبة دائماً مثل روحك

– كلامك جميل استاذ، لماذا لا يكلمني رئيس التحرير بهذه الطريقة؟

– استاذ محمود انسان طيب، لكنه عصبي قليلا

– قليلا؟؟؟ هههه بل هو حار مثل الفلفل الحار

– حسنا سنسميه استاذ فلفل

ضحكتْ وخرجتْ بهدوء.. اخرجتُ الأوراق، قلّبتها مجموعة قصص وقصائد، ومقالات نقدية، بعضها بخط اليد واخرى بالطابعة، كتبتُ بعض الملاحظات عليها ووضعتها فوق المنضدة. ارتشفتُ قهوتي، اخرجتُ كتاب (انتيخريستوس) من الحقيبة وقرأت الصفحات القليلة المتبقية منه، استوقفتني عبارة (بالنسبة لشعب مثل شعبنا مضطهد.. الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى الخير).! وضعت الكتاب جانبا وفكرت بالعبارة بعمق.

***

منذ احتلال مدينة الموصل من قبل عصابات داعش الإجرامية، والقلق يسيطر على تفكيري.. ماذا لو تقدمت هذه الأفاعي السود صوب مدينتنا الجميلة؟ وهذه الحشود العسكرية هل تستطيع حمايتنا كنت أتساءل بفزع؟

حين عدت من العمل رأيت مجموعة الشباب لازالوا منهمكين بالأصباغ وتعليق الأعلام لقد تحولت محلة رأس العين الى ما يشبه شارع من شوارع البرازيل!! فرحت كثيراً بالشارع المزدان بالرسومات، ورصيف المتنزه، وأعمدته كلها بألوان زاهية واعلام الدول المشاركة بكأس العالم.. ضحك الشباب وقالوا:

– ها استاذ سلام شنو رأيك؟

– عاشت الأيادي.. فعلا أنتم فنانون، ما أجمل محلتنا اليوم!

– واليوم أنت معزوم معنا لنشاهد المباراة.. لقد هيأنا شاشة كبيرة سننتظرك استاذ

– حسناً.. شكرا لكم ايها الرائعون.

– ٢ –

عاش جدي سالم ٧٤ سنة، بعدد الفرمانات (حملات الابادة) التي تعرضنا لها. تزوج من جدتي (هوري) – التي كان يسميها حورية لشدة جمالها– وهو في الثامنة عشرة من عمره وله منها ولدان سليم الذي هو أبي، وسليمان وبنت واحدة اسمها سليمة.

عمل جدي راعياً للأغنام وكان يلقب بـ (سالم الراعي)، ولكن أبناء محلتنا (رأس العين) في بحزاني أسموه (سالم ابو رجل) بعدما فقد ساقه حين انفجر عليه لغم ارضي كان متروكاً في الجبل وهو إرث لأحد الحروب اللعينة.

ثم غيّروا اسمه مرة ثالثة الى (سالم المجنون) بعد أن استشهد ابنه الأصغر سليمان في بداية حرب إيران، وكان جدي قد عمل كل التحضيرات لزواج عمي الذي خطب ابنة جارنا(سلمى)، وحدّد يوم زفافه حين يعود في اجازته الدورية، ولكنه عاد محملاً بتابوت فوق سيارة تاكسي يلفّه علم العراق.

صُدِمَ جدي عندما أنزلوا التابوت الملفوف بالعلم ووضعوه في حوش الدار الواسع، وبدأ يصرخ ويلوّح بعكازتهِ بوجه السماء: (اللعنة عليكم وعلى كل من اخترع هذه الحرب). رمى بنفسه فوق التابوت

وأجهش يبكي ويلطم كالنساء، سحبوه الى احدى الغرف بعدما أغمي عليه.

أما جدتي فقد أدمت وجهها بأظافرها، وقصت جدائلها الطويلة، تبعتها امي وبقية نسوة المحلة.

كان عمّي سليمان هو أول شهيد في القرية، وقد شارك كل أبناء بحزاني وبعشيقة في جنازتهِ المهيبة، كما شارك أعضاء الحزب بمراسيم تشييعه وبدأوا بإطلاق الرصاص احتفاءً باستشهاد عمّي!

لم يكن أحد يعرف بأن عشرات الشهداء سيلحقون بعمي.!

***

عاد ابي بعد يومين من استشهاد عمّي، من وحدَته العسكرية في الجبهة، انهار ورمى حقيبته امام الرقعة السوداء التي كُتِب عليها:

(الشهيد البطل سليمان سالم حسن استشهد في قاطع المحمرة بتاريخ ١٩٨٠ /١٢/٤)

كان أبي يبكي بحرقة ويضرب بقبضته على الحائط المعلقة عليه اللافتة، (كيف سأنتقم لك يا أخي وأنا لا أعرف قاتلك الحقيقي!!)

حمله شباب المحلة واسندوه إليهم ومشوا به ببطئ مطأطئي الرؤوس والدموع تملأ عيونهم الى بيتنا في بداية الزقاق.

كان اخي سلمان الذي يكبرني بعشر سنوات يحكي لي كل هذه التفاصيل ويقول: (في حينها لم تكن انت قد ولدت بعد وكانت اختي أمل بعمر ثلاث سنوات).

سلمان الفتى الأسمر القوي الذي كنت اعتبره (سوبر- مان) وبطلي الأسطوري الذي كنت احتمي به، سلمان الذي تحمل المسؤولية وهو طفل، وبدأ يعمل وهو في الثانية عشر من العمر.

أما أمل التي كانت تكبرني بخمسة اعوام فكانت بمثابة الأم الثانية لي تلبي كل طلباتي وتعطيني جزءاً من مصروفها فكنت انا الطفل المدلل والمشاكس والنزق أو كما كان يحلو لأمي ان تقول لي:

(أنت امير السلام ايها الجميل الأشقر).

***

لي حكاية مع الاسماء فأسمي (سلام) وقد ولدت مع الحرب، التي تبعتها حرب، ولحقتها حرب، وتلتها حرب وحرب وحرب....

أبي اسمه سليم ولم يستمر سليماً فقد قضى نصف حياته معوقاً ممدداً فوق السرير او جالساً فوق كرسيه ذي العجلات.

جدي سالم الذي لم يقدر على الحفاظ على سلامة عقله بعد مقتل ابنه الأصغر في الحرب.

فرحة هو اسم والدتي التي فقدت طعم الفرح في حياتها بعد ان أصيب أبي بشظية في ظهره وعاش بقية حياته مشلولاً.

سليمة عمتي التي تمزق جسدها هي وزوجها واطفالها في انفجار تل عزير آب ٢٠٠٧.

أمل شقيقتي التي فقدنا الأمل في العثور عليها بعد ان اختطفتها عصابات داعش الإجرامية في آب ٢٠١٤.

نرجس أكثر انسانة أحببتها لم تكن تستطيع تحمل رائحة زهور النرجس!

خالي فرحان كان مصاب بكآبة دائمية!!!

كنت استمع الى اغنية اساميا لفيروز: (اساميا شو تعبو أهالينا تلاقوها وشو افتكروا فينا أسامي كلام شو قصد الكلام عينينا هني اساميا)

فسألت امي بحسرة: لماذا لم تسموني (حرب)؟!

ابتسمت ابتسامة حزينة ثم مسحت دمعة بظهر كفها وقالت:

– ربما هي أقدارنا يا بني، هي التي تعاكس رياحها اشرعة أساميا!

–٣–

فجر يوم (الأحد الأسود) المصادف الثالث من آب ٢٠١٤ استيقظتُ فزعاً على صوت أبي وهو يتكلم بصوتٍ عالٍ في الموبايل، أقفل موبايله ورماه أرضاً. سألته:

– ماذا هناك يا أبي؟ أجابني بصوت تملأه الحشرجة:

– لقد احتلوا سنجار!!

سمعت أمي بالخبر، وصاحت (أمل) هل اتصلتم بها؟

قال أبي:

– منذ ساعة أتصل بها ولا يوجد رد!!

قالت أمي والدموع تترقرق في عينيها:

– وكيف عرفتَ انهم احتلوا سنجار؟

– اتصلتُ بأصدقائي، بعضهم لم يرد.. وبعضهم كانوا يصرخون ويقولون:

– لقد هربنا الى الجبال عندما هاجمنا (داعش) ونحن محاصرون...

بدأت أمي تبكي، وتصيح أمل وعائلتها ترى ما هو مصيرهم؟

فقال أبي بحزن: (لا أحد يعرف)..

في الصباح اتضحت الأمور.. لقد انسحب الجميع من سنجار، ولم يبق غير الأهالي الذين قاوموا حتى الرمق الأخير بأسلحتهم الخفيفة، ليتسنى للآخرين فرصة النجاة والهروب نحو الجبال، ولكن مقاومتهم لم تستمر، فقد نفدت ذخيرتهم وهاجمتهم عصابات داعش بأسلحة ثقيلة وهمرات استولوا عليها من الجيش الذي انسحب من الموصل. وانضم الى داعش الخونة من العشائر العربية التي تحيط بسنجار وبايعوا الدولة الإسلامية وساعدوها بالرجال والمال، لقد غدروا بأهلنا في سنجار وخانوا الملح والزاد.

استمر اتصالنا مع أختي أمل وزوجها وأولادها لكن دون جدوى.. وعند الظهيرة كانت الأخبار تنتشر كالنار في الهشيم، لقد قتلت عصابات داعش الإجرامية الشيوخ وذبحتهم بدم بارد، وخطفوا النساء والأطفال، وأعدموا الرجال في مجازر وحشية، وتركوا جثثهم مرمية في الشوارع والساحات...

قال أبي بهدوئه المعهود:

– اسمع يا سلام.. الآن تأخذ أمك وزوجة أخيك وبناته الى بيت صديقي (شيخ فرمان) في مجمع مهد لقد اتصلت به الآن وهو ينتظركم. خذوا معكم المستمسكات المهمة وكل ما تحتاجونه من اشياء ضرورية وحضروا حقائبكم حالاً.. قاطعته وأنت ايضاً يا أبي ستأتي معنا.

قال باصرار:

– سأبقى معك هنا يا بني، ولن أغادر المنزل.

***

في طريق عودتي من (مهد) بعد أن أوصلتُ أمي وزوجة أخي وبناته، أدهشتني الأعداد الكبيرة من السيارات التي تحمل العوائل وتتجه نحو الشيخان ومهد ومعبد لالش ودهوك وشاريا، كانت الصدمة بادية على الوجوه، والفزع يقطر من العيون.

بحلول المساء كانت بحزاني وبعشيقة شبه فارغتين، لم يبق فيهما الاّ الرجال والشباب الذين يقدرون على حمل السلاح. فبعد ما حصل في سنجار من مجازر وقتل وخطف النساء، قررّت أغلب العوائل تأمين النساء والأطفال بعيدا عن المنطقة ليومين او ثلاثة أيام أو أسبوع على أكثر تقدير. ولم يدر بخلد أحد أن داعش ستصل المنطقة، فقد احتشدت الآلاف من القوات على مشارف المدينة

مدججة بالأسلحة الثقيلة والدبابات، وكان الجميع يطمئنوننا بأن داعش لن تمر الاّ فوق جثثهم.!!

قبل الغروب كنا نتمشى أنا وصديقي سعد في شوارع مدينتنا الصغيرة وهي خالية من النساء والأطفال، وأغلب محلاتها مغلقة، قلت لصديقي:

– كم أخشى أن تتحول مدينتنا الى مدينة أشباح!

فضحك وقال:

– كلها كم يوم ويعود كل شيء الى طبيعته كما كان. قلتُ متشائماً:

– لا أظن يا صديقي.

عدتُ الى البيت، حضرت العشاء لأبي ولي، بعدها استأذنته للذهاب الى المتنزه الذي أصبح نقطة التقاء شباب المحلة، وتبادل الأخبار والنكات.. كان الشباب يتناوبون على حراسة الحي كل مع سلاحه الى الصباح وكأنهم في واجب عسكري منظّم، كنت أجلس معهم ساعة أو ساعتين ثم أعود بعدها الى أبي لألبي حاجاته وطلباته البسيطة.

***

في المساء الذي سبق خروجنا من بحزاني، وكعادتنا كنا نتمشى أنا وسعد، فرأينا وجهاء المدينة وممثلي الأحزاب ورجال الدين يتجولون في الشوارع، وهم يشدون من أزر الأهالي ويشجعونهم على الثبات وحماية المدينة وعدم مغادرتها والدفاع عنها. وفي المساء

نفسه سمعنا بوصول اعداد كبيرة من المقاتلين الى الجبل لزيادة تحصين المنطقة.

أسعدتنا الأخبار الجديدة، وعاد صديقي ليقول لي: تأكد أن كل شيء سيكون بخير!

في صباح اليوم التالي استيقظنا على صوت المدفعية كانت قريبة لدرجة ان الجدران اهتزت.. اتصلتُ بأحد أقاربنا في البيشمركة وسألته: ماذا يحصل بحق الجحيم؟ قال: داعش تقترب من قره قوش وبرطلة، أهربوا حالاً واتركوا كل شيء...

جاء شباب المحلة الي كما اتفقنا لنخرج معاً حين تسوء الأمور، وليساعدوني علي حمل أبي في حالة خروجنا من المدينة. ذهب بعضهم لأيقاظ من كان نائماً والبقية ساعدوني على حمل أبي ووضعه في السيارة، أغلقنا الأبواب وانطلقنا صوب طريق الجبل الذي يوصلنا الى مهد، حينها تذكرت مقولة جدي: (ليس لنا صديق سوى الجبل).

كان أبي ممدداً في حوض سيارة صديقي البيك – آب الحمراء فهو لا يستطيع الجلوس بعد أكثر من ثلاثين سنة من الشلل. مئات السيارات كانت تتجه الى طريق الجبل المؤدي الى قرية مهد، صادفنا بعض الشباب يتسلقون الجبل وبعضهم سار في الأودية للابتعاد قدر الإمكان.

الجميع مرعوبون يتوقعون وصول عصابات داعش، والسيارات تنهب الطريق بسرعة جنونية بعد أن تأكدوا ان لا أحد بقي ليحمينا ويدافع عنا كما كانوا يدّعون ويعدون.!! الغبار والخوف وشمس آب الحارقة يلهبون وجوهنا بالسياط، وأبي بالكاد يستطيع التنفس، وضعتُ الكمامة فوق فمه وبللتُ قطعة قماش لأجعلها مظلة تحمي وجه أبي من الغبار وأشعة الشمس.

– ٤ –

كانت سنة ٢٠٠٧ حزينة كأم ثكلى بوحيدها، في الأسبوع الأول من هذه السنة الملعونة مات جدي، وتوقف قلبه الكبير عن النبض، ولكن نبوءاته تحققت. فعندما ضيّق الحصار الاقتصادي مخالبه علينا، اضطررنا أن نبيع المجمدة، وبعض أثاث البيت لتأمين لقمة عيش بسيطة في زمن الجوع والعوز والحرمان. لكن جدي رفض أن نبيع التلفزيون الذي في غرفته، لأنه كان متأكداً – بحسب تنبؤه – بأنه سوف يرى على شاشة هذا التلفزيون الدكتاتور وهو يسحل في الشوارع كأي مجرم حقير، فالكفر يدوم والظلم لا يدوم على حد قول جدي.

بعد سقوط النظام الدكتاتوري كان جدي يضحك ويقول: لقد قتل هذا الطاغية أولادنا في الحروب، وها هم أولاده يُقتلون ويُعرضون على شاشة التلفزيون ليراهم الجميع. رمّل نساءنا فترملت بناته، أخرجوه من الحفرة كجرذ قذر، هذا الذي تسلط على احلامنا، وزرع

آذاناً في حائط كل غرفة من منازلنا، زرع الخوف في حقولنا بدلاً من القمح، وتساقطت علينا الأحزان بدلاً من المطر.. وها هو أخيراً يحصد ما زرع، كان جدي يبتسم بثقة ويقول: (يمهل ولا يهمل) ...

كان يقول لي دائماً: (لا أريد أن أموت قبل أن أرى بعيني زوال هذا الظالم).. وقد تحققت أمنيته.

بفقدان جدي فقدتُ الشجرة التي كنت أستظل بها، والنبع الذي أنهل منه الحكايات، والحكيم الذي كان يرشدني الى الطريق الصحيح عندما تظلم في عيني كل السبل.

لا أدري لماذا كان جدي أقرب الي من أبي؟ ربما يكون الحزن الذي خيّم على أبي بعد اصابته، وانكبابه على قراءة كتب التاريخ هو ما جعلني أشعر ان مسافة تفصلني عن أبي، فعوّضتُ ذلك بالاقتراب من جدي.

أذكر مرة أنه قال لأمي: سلام حصتي ولا أريد أن (يزعله) أحد.

ضحكت أمي وقالت كلنا حصتك يا عمي..

احتضنني جدي ومسّد على شعري، فأحسستُ من ذلك اليوم أنني أمتلك نوعاً من الحصانة والتميّز.

***

كم هي مشؤومة هذه السنة؟! لم تكتفِ بأخذ جدي، فتمادت بحقدها ومدّت يدها الطويلة الى فأسها لتقصم ظهري وتكسر سندي،

فبعد أربعة أشهر من موت جدي قُتل أخي سلمان مع زملاءه الذين كانوا يعملون في معمل الغزل والنسيج في الموصل.

أربع وعشرون جثة وصلت الى بعشيقة وبحزاني مساء ذلك اليوم النيساني الأسود.. أربعة وعشرون رجلاً أعزلاً يُقتادون في وضح النهار من قبل العصابات التكفيرية ويُعدمون بالرصاص بدم بارد، ذنبهم الوحيد أنهم أيزيديون.!!

وقد وصلت الوقاحة بالتكفيريين الى حد تصوير المجزرة وبثها على مواقع الأنترنت مصحوبة بأناشيد دينية، لا تردعهم سلطة دولة، ولا وازع ضمير.

غيمة سوداء غطت سماء المدينة، الحزن يتجول في الأزقة، الكارثة أكبر من أن تستوعبها مخيلتنا، أربعة وعشرون قبراً تُحفر على عجل، وتتوزع على مقابرنا التي أدمنت ابتلاع ضحايا الحروب والإرهاب..

دموعي على جدي لم تجف بعد، وها أنا أذرف الدم عوضاً عن الدمع، فلم يعد في المآقي من دموع.. أبكي أخي المغدور، وأبكي أبي وأمي المصدومين من هول المصيبة، وأبكي نفسي كثيراً لأنني أصبحت وحيداً وخاوياً كبئر في مزرعة متروكة.

عادت أختي أمل وعمتي سليمة الى سنجار، وبدأت زيارات الأصدقاء والجيران تقل بمرور الأيام.. عندما ينفض عنك الآخرون،

وتبقى لوحدك تشعر أن الحزن صار غولاً عملاقاً يكاد أن يخنقك، كنتُ أحس أحياناً بأنني سأتقيأ حزناً.!

***

الإنسانة الوحيدة التي كانت تمتص حزني كإسفنجة هي نرجس ابنة عمتي، فلا يمر يوم الاّ وتتصل بي وتطمأن علي وتُسمعني كلمات كأنها البلسم يشفي جروحي وقروحي، وحين لا تتمكن من الاتصال تصلني منها رسائل رقيقة كأجنحة الفراشات. نرجس كانت رئتي النظيفة التي أتنفس بها، بعدما ملأ الحزن والفقدان رئتي الأخرى بالقيح والصديد والسخام.

نرجس الجميلة صاحبة العينين الواسعتين كبحرين أزرقين، وشعر كلون الشمس، الطالبة في كلية الآداب في مرحلتها الثانية، والتي وعدتني بأن تترجم قصصي الى اللغة الإنكليزية حين تتخرج.

يقفز صوتها الملائكي الى ذاكرتي حين اتصلت بها ذات مساء، وتذكرت رنين ضحكتها حين سألها:

– هل وصلتك رسالتي الأخيرة؟

أجابت بخبث:

– اية رسالة؟

قلت لحظة واحدة وأعدت أرسال هذا المقطع:

في طفولتي

كنت أجمع قطع المغناطيس

الهو بها وأحاول معرفة سرّ

انجذاب الأشياء اليها

وعندما التقت عيني بعينيك

حينها اكتشفت سرّ الجاذبية!

أعدت الاتصال بها..

- ها وصلت؟

انفجرت ضاحكة.. كنتُ اعتقد أنك تكتب القصص فقط، ولكن اكتشفت أنك شاعر ايضا.. ضحكت ثانية وقالت هذه الرسالة ارسلتها مرتين أيها العاشق المسكين، وأقفلتْ الخط.

ليتني أستطيع أن أحذف سنة ٢٠٠٧ من تقويم الآلهة.!!

في يوم الثلاثاء الأسود - اللعنة لقد صار اسبوعنا كله سواد - والذي صادف الرابع عشر من آب من نفس السنة المنحوسة، فجّر الإرهابيون أربع سيارات مفخخة في مجمعي تل عزير وسيبا شيخ خدر جنوب سنجار، راح ضحيتها أكثر من أربعمئة شهيد، ومئات الجرحى وعشرات المفقودين تحت الأنقاض، وتهدمت مئات المنازل والمحلات التجارية مع أضرار كبيرة في باقي البيوت والسيارات.

من بين البيوت المهدمة كان بيت عمتي في تل عزير، فقدنا عائلة عمتي بكاملها.. رحلت نرجس وفارقتني الى الأبد دون كلمة وداع، أو بصيص أمل باللقاء.

فقدان نرجس صيرني صحراء قاحلة متخمة بالأحزان والخواء والجفاف، غربت شمسي وتحوّلت نهاراتي الى ظلام دبق ووحشة وحشرجات توشك أن تخنقني.

كانت هذه الكارثة هي الفرمان رقم ٧٣ كما يقول أبي، وسيضاف الى سلسلة الفرمانات التي حكى لي عنها كثيراً.

— ٥ —

وصلنا (مهد) قبل الظهيرة بقليل، وجوهنا مغبّرة وأبي يتنفس بصعوبة، انزلناه في بيت الشيخ فرمان، غسلنا وجهه بماء بارد، ومددناه مقابل المبردة.. الناس في مهد كانوا مرتبكين بعضهم غادروا، وبعضهم ينتظرون وقد جهزوا سياراتهم ووضعوا فيها كل ما يحتاجون اليه، وهم على أهبة الاستعداد للمغادرة. كانت سيارة الشيخ فرمان ايضاً محمّلة وجاهزة للانطلاق، اقترح علينا الشيخ ان نذهب معهم الى السليمانية وقال: تعالوا معنا ابني (خيري) يعمل هناك ولديه مكان يسعنا جميعاً. شكرته على حسن ضيافته واعتذرت منه، فحالة أبي لا تسمح له بالسفر مسافة طويلة، وقلت له: سنذهب الى (شاريا) فهي قريبة من دهوك ولي فيها صديق سيسافر قريبا، وقد اتصل بي وهو ينتظرنا ليعطينا مفتاح منزله.

بعد استراحة قصيرة حملنا أبي وأعدناه الى السيارة، ودعنا الشيخ متمنيا لنا السلامة، واوصانا ان نتصل به اذا احتجنا اي شيء، أغلق باب منزله وانطلقوا الى السليمانية هو وعائلته.

كان الطريق الى شاريا معبداً، عكس الطريق الترابي الذي سلكناه في الجبل، وكان أبي ساكناً يحدق في السماء حزيناً ومشوش التفكير.

استقبلنا صديقي مراد بحرارة حال وصولنا، وساعدنا على إنزال أبي من السيارة، كان قد جهز له غرفة وسرير، وضعنا أبي فوق السرير برفق وتركناه ليرتاح قليلاً، ثم أنزلنا حاجياتنا الضرورية التي جلبناها معنا، ودعني سعد وقال: تركت عائلتي في الشيخان سأتصل بك لاحقاً.

صاحبة المنزل كانت تعد لنا الغداء، فنهضت أمي وزوجة أخي لمساعدتها، بينما كان القلق والوجوم باديان على وجهي ابنتي أخي اللتان كانتا ترتبان أغراضنا وتحملانها الى الغرفة المجاورة التي دلتهم عليها صاحبة الدار.

على الغداء كان الجميع صامتين يأكلون بلا رغبة، وبعد الانتهاء من الغداء دخلتُ الغرفة التي فيها أبي فوجدته يغط في النوم بعد رحلته الشاقة.

كنا نتحاشى الحديث عن أخبار سنجار، وما يحصل فيها من مجازر كي لا تسمع أمي، وكانت هي بدورها تداري دموعها وبكاءها الصامت حزناً على عائلة أختي أمل ومصيرهم المجهول. خرجنا انا ومراد لتدخين سيكارة في حديقة المنزل، وأخبرني انه وعائلته سيسافرون مساءً من مطار اربيل الى أرمينيا، وأعطاني مفتاح الدار، وقال لي: البيت بيتك يا سلام وكل ما تحتاجونه موجود، ثم

أخرج رزمة أوراق من جيبه ووضعها في يدي، ربت على كتفي قائلاً بمحبة: هذا المبلغ سيساعدك في هذه الأزمة.

***

في عيني مراد اختفى ذلك اللمعان والبريق الذي كنت متعوداً على رؤيته، مراد صاحب العينين الواسعتين والضاحكتين كان ساهماً وحزينا، انتبه الى نظراتي واستغرابي من حالته فقال: اسمع سلام، كنت أنتظر الفيزا بفارغ الصبر، لنسافر انا وعائلتي للسياحة والاستجمام وتغيير الجو.. لكنني أشعر انني لن اعود الى هنا مرة ثانية! وان تغيير الجو سيتحول الى تغيير حياتي بالكامل وسأفتقدك..

قلتُ له بحزن: لا أحد يدري ماذا يخبئ لنا الغد، أمسكني من يدي وقال: دعنا نتمشى قليلاً فربما هذه آخر مرة... قاطعته وقلت: حسناً لنخرج.

استغربت رؤية الكثير من معارفنا في بعشيقة وبحزاني يتجولون في شوارع شاريا، أقف لأسلم عليهم وكأنني لم أرهم منذ سنين، فيضحك مني مراد ويقول: البارحة كنتم معاً...! أغلبهم كانوا مثلي أتوا الى بيوت أصدقائهم أو أقربائهم، وكل بيت في شاريا كان قد استقبل عائلة أو أكثر، واعتقدنا أن شاريا ستكون محطتنا الآمنة لحين انجلاء الغيمة السوداء.

ودعنا مراد وعائلته، وكانت أمي تبكي.. قبّل مراد يدها وقال لها: لا تحزني يا خالة الحياة وداع واستقبال، سنرجع قريباً وستكون الأمور بخير. قالت أمي: ترجعون بالسلامة يا ولدي، نريد فقط أن نعيش، ان يتركونا نعيش...

خرجت ليلاً لأجلب بعض الأدوية لأبي من الصيدلية القريبة، كانت مقفلة، واستغربتُ خروج الكثير من السيارات باتجاه مدينة دهوك، بدأت الشائعات تنتشر بان داعش تقترب من شاريا، والناس مرعوبون لا يعرفون اين يولون وجوههم.

دخلت البيت ارتميتُ فوق الأريكة وقد هدّني التعب والارهاق، لم أكن أريد أن أقلق نوم أبي وأمي، تمددتُ والأفكار السوداوية تتلاعب بي وتشوش عقلي.

***

استيقظنا صباحاً على أصوات السيارات، وصخب الجيران، خرجتُ بسرعة رأيت الجميع يغلقون أبوابهم ويغادرون، قال أحد الجيران:

– لقد احتل داعش بعشيقة، ويقولون انهم يتجهون صوب مناطقنا، الأفضل أن نغادر فوراً.!!

رنّ موبايلي وكان المتصل هو سعد، الو.. سلام.. كان صوته مرتبكاً، هل سمعت الأخبار؟ لقد دخل الأوباش بعشيقة، وأنا الآن في طريقي الى دهوك، سأوصل عائلتي وأعود اليك..

دخلتُ المنزل كان الرعب مرسوماً على وجه أمي والبنات، طمأنتهم وقلت لهم: لا تخافوا سيأتي سعد ويأخذنا الى دهوك، لملموا حاجياتكم وسننتظره. وضعتُ جميع المستمسكات والأوراق المهمة والكاميرا والحاسوب في حقيبة أبي الجلدية. كان يتنفس بصعوبة، وقال وصوته يتقطع: لقد اصبحتُ عبئاً عليكم يا بني، وحين خرجتُ من بعشيقة أحسستُ أنني أقترب من نهايتي، كم أخشى أن أدفن بعيداً عن تراب مدينتي..

– لا تقل هذا يا أبي، ستتحسن ونعود الى منزلنا قريباً.

أمسكَ بيدي وشدّ عليها، فشعرتُ بحزن الكون كله في حرارة كف أبي.

بعد أكثر من ساعة وصل سعد، وقال لي: سنذهب الى دهوك، أغلب العوائل سكنت المدارس التي فتحت أبوابها للنازحين، وعائلتي الآن في احدى مدارس بروشكي.

قلتُ له: لقد أتعبتك معي كثيراً يا سعد، فقال غاضباً: عيب عليك سلام، نحن عائلة واحدة ووالدك بمقام المرحوم أبي..

مددنا أبي هو وفراشه في حوض السيارة، أخرجنا حقائبنا وأغلقت الباب خلفي. انطلقنا سريعاً، كانت الشوارع خالية، لم يبق احد في شاريا غيرنا، لقد تركوا كل شيء وراءهم، بيوتهم، مزارعهم، حيواناتهم، وذكرياتهم.

مسكين أبي كان ينظر الى السماء وكأنه يتوسل بها ان تجد لنا ملجأ آمناً.. ظللته بقطعة القماش، والمصير المجهول يخيم علينا.

وصلنا بروشكي، المدارس ممتلئة بالعوائل النازحة، والبعض يفترش الأرصفة، نزلت سارة والبنات مع عائلة سعد، وبقينا أنا وأمي مع أبي. قال سعد: سنأخذ والدك الى المستشفى، فهو لن يتحمل أكثر، جسمه ضعيف، وحالته ساءت من كثرة التنقل.

***

بقيتُ مع والدي في المستشفى حتى المساء، أكملتُ فحوصاته، ونصحني الطبيب أن يبقى أبي تحت المراقبة خوفاً من أن تسوء حالته أكثر. جاءت الممرضة وقالت لي بأدب: خذ راحتك أخي، لا يُسمح أن يبقى مع المريض الاّ شخص واحد، ووالدتك ستعتني به، قبل أن أخرج قلتُ لأمي: سأعود الى المدرسة لأطمئن على سارة والبنات، اتصلي بي اذا احتجتِ أي شيء.

في طريق عودتي كنتُ كمن يقف أمام لوحة عملاقة لا ارى منها الاّ جزء صغير.. كانت الصدمة تشلّ تفكيري وأنا أشاهد الناس يفترشون الأرصفة، وينامون تحت ظلال الأشجار، يزدحمون في هياكل العمارات، وتحت الجسور يبحثون عن أي ظل يحتمون به.. آلاف الهاربين من بطش داعش، وأنا منهم، لا يعرفون ما هو مصيرهم، وحتى بعض سكان دهوك بدأوا بالمغادرة باتجاه الحدود التركية.!

لا شك أن سارة والبنات جائعات مثلي، فنحن لم نأكل شيئاً منذ البارحة، رائحة الفلافل الحارة حفّزت جوعي أكثر حين مررتُ بقرب مطعم شعبي صغير، اشتريت لفّات فلافل وركبتُ الحافلة التي تتجه الى بروشكي.

كان الخوف والقلق باديان على وجوه الركاب، والمشاة، وأصحاب المحلات، الكل في حالة من الهلع والارتباك والتشوش لا يعرفون ماذا ينتظرهم وكيف سيتصرفون مع هذه الأحداث المتسارعة والرهيبة.. نزلتُ قريباً من المدرسة، الكثير من الذين أعرفهم كانوا جالسين على الرصيف أمام باب المدرسة، سلمتُ عليهم ودخلت، كانت الحديقة مزدحمة، وكذلك الممرات، سألتُ أحدهم عن سعد فأشار الى الطابق الثاني، صعدتُ الدرج فرأيت سعد وعائلته جالسين في أحد الصفوف، بادرني بالسؤال عن ابي فقلت له تركته في غرفة العناية المركزة، وهو تحت المراقبة الى أن تستقر حالته. قال مازحاً: أرأيت يا سلام؟ لقد صدقوا حين قالوا لنا أن المدرسة هي بيتنا الثاني!! ابتسم بحزن ها هو بيتنا الثاني تعال وأدخل، سألته عن سارة والبنات فقال: جاء أخوها فراس وأخذها معه الى الصف المجاور لصفهم نهاية هذا الممر الى اليمين.

عندما رأتني سارة أجهشت بالبكاء هي والبنات، وقالت بمرارة (لقد أصبحنا مشردين).. هدأت من روعهم وقلت لهم تعالوا نأكل لقمة والصباح رباح.

– ٦ –

أبـي المعـوّق الـذي تركتـه مريضـاً فـي المستشـفى، الرجـل الهزيـل الـذي يتـنفس بصـعوبة فـي غرفـة الانعـاش، كـان يومـاً أفضـل لاعـب فـي فريـق الكليـة للكـرة الطـائرة، وقـد فـاز ثـلاث مـرات ببطولـة جامعـة الموصل.

(سـليم) الشـاب الوسـيم كنجـوم السـينما الفـارع الطـول، صـاحب العينـين العسـليتين والشـعر الأشـقر اللـذان ورثتهمـا عنـه، أبـي الـذي كـان فـارس أحـلام بنـات جيلـه، تحـوّل فـي لحظـة الـى نصـف انسـان.. شـظية صـغيرة قـذفتها الحـرب مـن فمهـا النـتن، فاسـتقرت فـي العمـود الفقـري لأبي وتركته مشلولاً بقية حياته.

فـي السـنة الثانيـة مـن الحـرب ولـدتُ، وأصـيب أبـي.. كنـتُ أحسـد أبنـاء المحلـة لأن آبـاءهم يمشـون علـى أرجلهـم، وأنـا لـم أرَ أبـي واقفـاً يوماً!

كـان مسـتلقيا فـوق سـريره أغلـب الأوقـات، وأحيانـاً يجلـس علـى كرسـيه ذي العجـلات، يتنقـل فـي صـالون البيـت لترتيـب كتبـه. لـم يكـن أبـي يحـب الخـروج مـن المنـزل، كأنـه لا يريـد أن يـراه أحـد وهـو نصـف جسـد. كـان يخـرج للضـرورات القصـوى فقـط، امـا لمراجعـة الطبيـب، أو لإكمال معاملة في دوائر الدولة.

غرفـة أبـي تطـل علـى الحديقـة بشـباكها المزخـرف والـذي يجـاور سـريره الأزلـي! وهنـاك أريكـة فـي الجانـب المقابـل للسـرير، وتلفزيـون

صغير، وطاولة عليها منفضة كبيرة، وعلبة سجائر، ومقدحة فضية أهدتها له أمي في عيد ميلاده. تزدحم الطاولة دائماً بالكتب، وجدران الغرفة مثبت عليها رفوف مليئة بالكتب أغلبها تاريخية، ولكنها تضم ايضا كتباً أدبية مختلفة في الرواية والشعر والمسرح، اضافة الى الكثير من الكتب الفلسفية والعلمية، والمجلات.

صالون البيت ايضا تحوّل الى مكتبة كبيرة، تحتضن مئات الكتب التي قرأها أبي خلال ثلاثة عقود من الزمن، وجميع هذه الكتب مرتبة بطريقة تسهل عليه العثور على أي عنوان يحتاجه في دقائق، وقد علّمنا كيف نجد كتاباً معيناً بسرعة في تلك الزحمة وذلك الكم الهائل من الكتب.

***

كان أبي طالباً في المرحلة الثالثة كلية الآداب– قسم التاريخ عندما تزوّج (فرحة) أجمل بنات بحزاني، بعد قصة حب استمرت خمس سنوات. وبعد سنة من زواجهما دخلت الفرحة حياة أبي حين وُلد طفله البكر (سلمان).

جمال والدتي لم يكن عادياً بل (وحشياً) كما يحب أبي أن يصفها، بشرتها حنطية تميل الى السمار، وعيناها واسعتان بلون الربيع، شعرها طويل لونه كالتمر المغمس بالذهب. كانت تصغر أبي سنتين، وقد أُغرمت به من النظرة الأولى، وهي فتاة بعمر الزهور.

كانت أمي تكبر وحبها لأبي يكبر معها، وسار قطار حياتها على سكة الحب دون توقف لنصف قرن من الزمان.

-٧-

نزلتُ الى حديقة المدرسة، كان الناس ممددين كسمك السردين، وجدتُ لنفسي مكاناً في زاوية الحديقة وتمددتُ فيه، كانت خلايا جسمي كلها تنبض بالتعب والوهن، وقلبي مقبوض كأن الحزن صار وحشاً يعصره بمخالبه ويدميه. السيارات تجوب في الشوارع، تذيع الأغاني الحماسية، لتبثَ في الناس الطمأنينة وتحثهم على البقاء وعدم المغادرة. كان رأسي مشوشاً مثل طبل تضربه وتتلاعب به أصابع غريبة من الأفكار، ويهاجمه القلق فلا يعرف السكينة والاستقرار والاتزان.

نزعتُ حذائي ولففته بقطعة كارتون كانت مرمية عند قدمي، ووضعته تحت رأسي، واستسلمت لسلطان النوم.

أحاطت سيارات الدواعش بالمدرسة، نزل منها مسلحون كالثيران، ملتحون تفوح منهم رائحة بول البعير، دخلوا المدرسة، صعدوا الى الطابق الثاني، سحبوا النساء من شعورهن وهم يتضاحكون، نساؤكم حلال لنا، هن سبايا لنا وسنستمتع بهن، أما أنتم أيها الكفار فسنقطع رؤوسكم بسيوفنا، أو تدخلون الاسلام وأنتم صاغرون. تتعالى أصوات ضحكاتهم وتمتزج بصيحات النساء والأطفال المرعوبين، يحملون النساء والأطفال بسياراتهم الحديثة، يربطون أيدينا من

الخلف، ويجبروننا أن نبرك على ركبنا في الحديقة على شكل صفوف، فيصيح أميرهم: الموت للكفرة، اقتلوهم مزقوهم، نسقط على وجوهنا بعد ان يكوينا رصاصهم، يسيل الدم الساخن تحت وجهي وأنا اسمع صرخاتهم: الله أكبر.. الله أكبر...

أفز من نومي ووجهي يتفصد بالعرق الساخن، على صوت آذان الفجر الله أكبر.. الله أكبر. الجميع نيام، وحدي أيقظني الكابوس، وأنا أتصبب عرقاً وحلقي جاف كأن رمال الصحراء تملأه.. اتجه بسرعة نحو الحمامات، أفتح الحنفية وأعب الماء حتى أرتوي، وأغسل وجهي بالماء، أعود الى مكاني في الحديقة وأتمدد علّني أنعم بقليل من النوم.

***

الكوابيس تلاحقني، أهرب منها لكن دون جدوى.. ساعات نومي قليلة ومتباعدة تقطعها الأحلام المزعجة، طعامي يقتصر على صمونة او لفة فلافل أحياناً أسدّ بها رمقي كي لا أموت جوعاً. لم أحلق ذقني لأكثر من أسبوع، في الصباح أذهب لزيارة أبي المريض، لا زال يتنفس بصعوبة، ويتكلم بصوت واهن، وجسمه يذوي كشمعة تحترق. أمي تؤنبني، والحزن يلفها كعباءة (أنظر الى نفسك يا بني هل رأيت شكلك في المرآة؟ تبدو مثل متسول يجوب الطرقات، جسمك يذوب، ولحيتك طويلة، وشعرك أشعث، اذا استمررت على هذه الحالة فستدخل المستشفى معنا) أبتسم لها

وأقول: ليس لدينا مرآة في المدرسة يا أمي! فتختلط دموعها مع ابتسامتها، وتقول بصوت متهدج سلام ابني الجميل الأنيق من يصدق أن تتدهور حالتك هكذا؟ أرجوك أعتن بنفسك، يمسك أبي بيدي ويضغط عليها ويومئ برأسه موافقاً على كلام أمي.

اعود الى المدرسة لتتصهر ساعات نهاري المتبقي تحت ظل شجرة الكالبتوس في الحديقة، أدخن وأفكر في مصيرنا المجهول الذي تحوّل الى غول لا أستطيع مقارعته أو هزيمته بأي طريقة، أعصر رأسي مفتشاً عن حل ولا أجد. كم هو مظلم هذا النفق الذي نحن فيه، أبحث عن بصيص ضوء في نهايته، لا ضوء.. ولا حل...

ينزل سعد من الطابق الثاني ونبقى جالسين ساعات نفلسف الخراب! يتصل مراد ليطمئن علينا، وعلى حالة أبي المريض وينصحنا كعادته بترك العراق.. لم يعد هناك مكان آمن، أخرجوا الى تركيا حتى لو سرتم على الأقدام، ومن هناك أركبوا القوارب البلاستيكية الى اليونان كما يفعل الكثيرون.. فنضحك ونقول له: ولدنا هنا وسندفن هنا...

قبل الغروب بقليل يتصل صديقنا شيردل الصيدلاني ويعاتبنا أنا وسعد لأننا لم نذهب لزيارته كما طلب منا رغم زياراته المتكررة لنا وقال: اليوم يجب أن أراكم، فتعذرت بحجة ذهابي الى المشفى لزيارة

أبـي، لكنـه أقسـم أنـه لـن يكلمنـا ثانيـة اذا لـم نـذهب اليـه مسـاء ذلـك اليوم.

***

شـيردل شـاب أعـزب يعمـل صـباحاً فـي صـيدلية مستشـفى دهـوك، وبعـد الظهـر فـي احـدى المستشـفيات الأهليـة، وهـو الوحيـد مـن العائلـة الـذي بقـي فـي العـراق، فجميـع أفـراد عائلتـه هـاجروا الـى ألمانيـا. لـه شـقة صـغيرة فـي شـارع (نوهـادرا). فـي العاشـرة مسـاء ينتهـي عمـل شـيردل ويعـود الـى شـقته، وصـلنا فـي العاشـرة والنصـف، اسـتغرب مـن هيئتـي ولكنـه عـانقني بشـدة وهـو يقـول: اللعنـة عليكمـا، تبـدوان مثـل المشـردين! ولـو رأيتكمـا فـي السـوق لمـا عرفتكمـا، سـلّم عليـه سـعد ودخلنـا.. كـان يضـحك ويقـول: يـا إلهـي أنتمـا حتمـا خريجـا سـجون! وشـاركناه ضـحكته، قـال: فـوراً تحلقـان ذقنيكمـا، وتسـتحمان، وتغيـران ثيابكمـا، ذهـب الـى غرفتـه وعـاد ومعـه ملابـس رماهـا لنـا.. هيـا أيهـا القـذران استحما وسأحضر لكم العشاء.

نظـرتُ الـى وجهـي فـي المـرآة، شـيردل معـه حـق، فأنـا أبـدو كسـجين فـر مـن سـجنه تـواً! حلقـتُ ذقنـي بسـرعة، ودخلـت الحمـام، كـان حمّامـاً حقيقيـا جمـيلاً، ولـيس (كـالمرافق) النـتن الـذي فـي المدرسـة والـذي كنـا نسـتخدمه كحمّـام!! غسـلت ملابسـي وارتـديت الملابـس النظيفـة التـي اعطـاني اياهـا شـيردل، وحـين خرجـتُ ضـحكا علـي وقـال أحـدهما للآخـر: انظـر لقـد تحـول سـلام القـذر الـى عـريس، فقلـت حسـنا حـان

دورك يا سعد، وفعل سعد مثلي وخلال ساعة كنا ثلاثتنا جالسين حول مائدة عامرة أعدها شيردل.

بعد العشاء احتسينا الشاي، وجلسنا نتسامر الى ساعة متأخرة من الليل، وقبل خروجنا اعطانا شيردل نسخة من مفتاح الشقة: (هذه شقتكما، تأتيان متى ما تريدان، تأكلان وتشربان وتستحمان وأنا الممنون).. قالها كأنه يدندن بأغنية وقهقه عالياً.. وقال ينصحنا: اسمعا ايها المغفلان (لا توجد أزمة دائمة، والحزن لا يحل مشاكلنا، علينا أن نتأقلم مع وضعنا الجديد).. خرجنا من شقة شيردل وكأنه زرقنا بمخدر او مهدئ خفف من ثقل المصيبة، وهوّن علينا أحزاننا بمرحه وتماسكه، وأحسست للحظة أن بعضاً من طاقته الإيجابية قد انتقلت الينا.

-٨-

عدنا الى بروشكي وتمددنا في الحديقة، أحسستُ بإنسانيتي التي كدتُ أفقدها وأتحول الى حشرة أو مسخ كما حدث لغريغوري سامسا بطل كافكا. غفا سعد بسرعة وعلا شخيره.. كنتُ أنظر الى النجوم، وأفكر في نجمتي التي اختطفها الموت، نجمتي التي قتلها الأوباش التكفيريون وأطفأوا توهجها ولمعانها..

نرجس حبيبتي التي فقدتُها منذ سبع سنوات، ولكنها لا تزال تعيش داخلي، أذكر أول مرة رأيتها حين زارتنا عمتي، شعرت وقتها انها تخرج من أحلامي، أو هي هدية جلبها لي بابا نويل فتحتُ الصندوق

فخرجتْ لتفاجأني.. يقولون ونحن نبحث عن نصفنا الآخر نرى شعلة ضوء على كتفه الأيمن.. لكن نرجس كانت محاطة كلها بهالة من الضياء، انبهرتُ بجمال تلك الصبية، ومن يومها دخلتْ الى قلبي وأقفلتْ عليه بالمفتاح، ورمت المفتاح في بحر عميق.

كان ذلك الأسبوع الذي زارتنا فيه نرجس من أجمل أيام حياتي، فقد كلفتني عمتي بمهمة تدريس ابنتها وكانت حينها طالبة في المرحلة الاعدادية وقالت لي: (هذه الشقية مكملة في اللغة العربية، وأنت خريج لغة عربية يعني اختصاصك، فما عليك الاّ جرّ أذنيها لكي تدرس وتنجح).

لم أعرف أن العكس سيحصل وستجرني هي من أذنيّ وتغرقني في بحر عينيها الصاخب.

ساعتان كل يوم خصصّتُها لتعليم نرجس، ولكنها كانت تسرق أكثر من ساعتين لتمطرني بأسئلتها وتخابثها ودلعها المثير. كانت نرجس بريئة كملاك، صريحة حد الوقاحة، وبعد يومين من تدريسي لها قالت فجأة: (سلام بدأتُ أحب اللغة العربية، أنك تسهلها علي بشكل عجيب).

فقلت لها: هذا هو عمل المدرس الحقيقي عليه أن يبسط المادة، لا أن يعقدها. فاذا صرتِ مدرسة في المستقبل اتبعي هذه الطريقة. فردتْ بسرعة وثقة: لا... لن أصبح مدرسة، ولا أحب مهنة التدريس، سأصير مترجمة وسأترجم قصصك الى الانكليزية عندما أتخرج...

بعد ان غادرتْ نرجس مع عمتي الى تل عزير، شعرتُ أن البيت أصبح فارغاً وموحشاً، كنت أدور في المنزل كمن يبحث عن حاجة ضيعها، وكان تفكيري بنرجس يشوشني فأسرح مع خيالاتي وأدخن بشراهة، الى أن يعيدني صوت امي الى الواقع: سلام ماذا جرى لك؟ هل أنت مريض بني؟ فأجيبها: لا ماما انه مجرد تعب وأرق.. اللعنة، كيف استطاعت تلك الصبية الصغيرة ان تستحوذ على اهتمامي، وتسرق مني تفكيري، تلك الجميلة الشقية كيف ملأت منزلنا بروحها الشفافة ودعاباتها وضحكها، وطاقتها الفياضة؟.

لا زال صدى صوتها يرن في كل ارجاء البيت، وصورة وجهها تتجول في المنزل وتنتشر كرائحة البخور في كل مكان. لا زال عطر يدها ملتصقاً بكفي حين سلمتْ علي وخرجتْ دون أن تلتفت! ترى هل تشعر هي ايضاً مثلي بالوحدة والضياع؟

بعد خمسة أيام اتصلتْ بي، كان صوتها يضحك وهي تقول:

– لقد نجحتُ يا أستاذ.. تصور لقد حصلتُ على ٨٥ % في اللغة العربية، ولأول مرة في حياتي، وهذا كله بفضلك يا سلام، لو كنت قريبة لاحتضنتك وقبلتك..

لم أعرف كيف أرد قلتُ بارتباك:

– ألف مبارك نرجس.. لقد احتبست الكلمات في حنجرتي ولم أعرف ماذا أقول..

قالت والصدق يملأ صوتها:

– اشتقتُ لك

– وانا أيضاً يا نرجس

– لا تتركني أنتظرك طويلاً، وبلغ خالي وخالتي سلامي وبشرهم بنجاحي..

– طبعا سنتواصل

– مع السلامة

هزني سعد من كتفي، سلام الا تسمعني؟ أين شردت؟ أعطني سيجارة، ناولته سيجارة مع القداحة، وبقينا ندخن ونثرثر الى ساعة متأخرة. قلتُ له: لقد شبعتَ نوماً يا سعد، فدعني انام قليلاً.. أدرت له ظهري وغفوت.

***

زارتني نرجس في الحلم، أمسكت يدي ومشينا في طريق طويل تحيطه الأشجار من الجانبين، ثم ركضنا الى أن تعبنا، كان ثوبها أصفرَ تملأه الزهور الملوّنة وشعرها منثور يطير مع النسمات، والفراشات تحيط بها كهالة، وفوقنا أقواس قزح، كنا نضحك ونكاد نطير فرحاً، بعدها جلسنا تحت ظل شجرة زيتون تشبه أشجار الزيتون في مزرعتنا، كنا متلاصقين، أنظر في عينيها، وتنظر في عيني، والصمت يحكي قصة عشقنا، أمسكتُ يديها وقبلتُ باطن كفيها، احتضنتها وقبلتُ عينيها وغنيت لها أغنية فيروز (بكرة انت

وجاي راح زيّن الريح، بكرة وانت وطالل اركض بلاقيك وسطوح المنازل كلا شبابيك، وانت تطل علي وتمسح جبيني بالسنابل)...

حملتها بين ذراعي وهي تهز اقدامها، وشعرها يكاد يلامس المروج الخضراء، كانت تضحك وتقول: (اعملني لعوبة واحملني على حصانك).. كنت أركض بها كأني أريد أن أخرجها من الحلم، وأنتزعها من بين أنياب الموت.. أركض، وأركض والمدى يتسع، ويذبل العشب رويداً رويدا، وتحترق الأشجار، وتلاحقني عاصفة من غبار، وتطاردني أسراب من غربان سود، أنظر خلفي، والرعب يتملكني، ولكني أستمر في الركض بلا توقف أو تعب إلى أن يوقظني رنين الموبايل، أفز من نومي كمن يلسعه عقرب، أسمع صوت أمي يأتي من بعيد متهدجاً: (سلام تعال فوراً، والدك يحتضر) ...

– ٩ –

وصلتُ المشفى، كنتُ أركض كالمجنون، صعدتُ الى الطابق الثاني، وحين دخلتُ الغرفة كان أبي مغطى بشرشف أبيض، وأمي جالسة تبكي وتلطم صدرها. ارتميتُ فوق صدر أبي ففاضت دموعي دفعة واحدة، بكيتُ آلام أبي كطفل صغير، ثلاثون عاماً من العوق والحرمان، كنتُ أبكي نصف جسد، فالنصف الآخر لأبي مات يوم ولدتُ، بكيته كثيراً لأنه توفى وهو بعيد عن قريته التي أحبها لدرجة الجنون، وسيدفن بعيداً عن أحبته.

سحبني سعد من فوق السرير فاحتضنته وأنا أبكي، مسح دموعه وقال: كن قوياً يا سلام، الأعمار بيد الله، جلسنا خارج الغرفة أشعل سيجارة واعطاني اياها، وأشعل لنفسه أخرى ونفثنا دخاننا ممتزجاً بالحزن والدمع. قال بصوت مبحوح: لقد اتصلت بشيخ فرمان وأبلغته بوفاة الوالد، وأخبرني أنهم سيتكفلون مراسيم الدفن وسيحفرون القبر في مقبرتهم وينتظروننا.

بعد ساعة كنا في طريقنا الى مهد، وأبي ممدّد في نفس السيارة، وبنفس الوضعية التي خرج فيها لآخر مرة من بيته.

مسكينٌ أبي.. ثلاثة عقود وهو يعاني فوق سريره، لكنه لم يتحمل البعد عن مسقط رأسه شهراً واحداً، مات نازحاً ودفن غريباً وهو الذي قال لي حين خرجنا: (كم أخشى أن أدفن بعيداً عن تراب مدينتي؟) وكأنه كان يقرأ قدره الحزين.

كنتُ يتيماً منذ اليوم الأول لإصابة أبي، فهو لم يمسك يدي يوماً ويأخذني للتسوق وشراء ملابس للمدرسة او للعيد كم كان يفعل آباء أصدقائي، ولم يحملني يوماً فوق أكتافه أو يصطحبني معه الى مدينة الألعاب، أو يلعب الكرة معي كما كان الآباء يفعلون.

لكنني الآن أكثر يتماً من أي وقت مضى، وعينيّ كانتا أكثر سخاءً من أي حزن مرّ عليّ، كنتُ أعتقد أن أحزاني الكبيرة قد جففتْ الدمع في المآقي، لكنها لم تتوقف عن ذرف الدموع بصمت وحرقة فوق جثة أبي الذي لن أراه بعد اليوم.

بعد أسبوع من موت أبي، دفنا أمي بجانبه في مقبرة الغرباء في مهد فقد فاجأتها جلطة دماغية قاتلة. يبدو انها انتحرت حزناً على رحيل أبي، كما يفعل طائر (البومبا) – نوع من الحمام الزاجل في البرازيل – الذي ينتحر بعد موت شريكه بحيث يظل ينقر حنجرته بمنقاره حتى الموت حزناً واخلاصاً للشريك.!

وقد كسرت أمي القاعدة أو المثل الشعبي الشائع: (لا أحد يموت بعد ميّته) ليتغير المثل ويصير: (لا أحد يموت بعد ميّته، الاّ فرحة زوجة سليم).!!

في حديقة المدرسة كنت أجلس ومعي سعد، فيأتي الجيران والأصدقاء للمشاركة في العزاء والتخفيف عني والوقوف معي في مصيبتي التي لا تشبه غيرها من المصائب.

انفضّ المعزون وبقينا أنا وسعد لوحدنا فقال لي بجدية غير معهودة: (اسمع يا سلام، لقد بعت سيارتي وسنسافر أنا وعائلتي الى تركيا، ونستأجر زورقاً مطاطياً للعبور الى اليونان ومن هناك ستتكفل المنظمات الانسانية وصولنا الى المانيا كما فعلوا مع الكثيرين، وسيأتي معنا فراس وأخته سارة وبنتيها.. أقترح أن تأتي معنا أنت أيضاً، فلم يعد لنا شيء في هذا البلد، سنبدأ حياة جديدة بعيداً عن الموت والقتل والتطرف، وسنحظى هناك بالسلام والأمان).

اخذتُ نفساً عميقاً من سيجارتي وقلت له:

– اذهبوا أنتم، وليحرسكم الله، وتصلون بالسلامة.. اعتني بسارة والبنات، أما أنا فسأبقى هنا، وأموت هنا..

حاول سعد ان يقنعني بمرافقتهم وترك البلاد وألحّ علي كثيراً، ولكنه لم يستطع أن يثنيني عن عزمي في البقاء.

بعد أيام ودّعتهم جميعاً، وعدتُ الى المدرسة في بروشكي، وجلستُ تحت شجرة الكالبتوس وحيداً كوتد مكسور.

***

الديدان تلتهم ذاكرتي، حشرات غريبة تطنّ في رأسي وتقتات على تفكيري، أدخن وأشرد بذهني بعيداً. لقد غدوتُ ظلاً واهياً وساكناً لروحي المتفجرة غيضاً وحزناً ومعاناة. الكآبة تسيطر علي وتضغط على أنفاسي حد الاختناق. النوم يخاصمني، والقلق يقودني الى تخوم الجنون. خسرتُ قدرتي على التركيز أو اتخاذ القرار، أو اختيار اي شيء. أرغب دائماً في تأجيل الأشياء الى وقت آخر، وفقدتُ زمام المبادرة. الفرح أصبح وحشاً أخافه، والضحك صار شيئاً غريباً لا يعرفني ولا أعرفه، ولا حتى أعرف نفسي.! لا شيء يثيرني، كل شيء صار باهتاً وبلا طعم أو رائحة، النجاح والفشل الحياة والموت لا فرق..

الشعور بالذنب يأكلني، واحساسي بالجبن والتقصير تجاه مدينتي وبيتي ينهشاني نهشاً، ويغمراني بالعار والتخاذل. لم أعد قادراً على قراءة الأمور او تفسيرها أو التنبؤ بها، المستقبل يرعبني ويملأني

يأساً وضعفاً وهشاشة. الخوف من المجهول هو ما يدمّر مقاومتي وحواسي، ويصيرني شكلاً هلامياً لا يصمد أمام أية صدمة. حياتي انكسرتْ نصفين يفصلهما وادٍ عميق لا أستطيع اجتيازه، ومواصلة التفاعل مع ما مضى وما سيأتي. حتى التواصل مع الناس صار صعباً ومتعباً وصرتُ اتحاشاه. فقدتُ الرغبة في الأشياء واصبحتُ أتهيبُ من أصغر الأمور وأتفهها. الفراغ واللاجدوى يخيمان عليّ، أحتاج الى صدمة كهربائية لأفيق من أحزاني وكوابيسي المزمنة.!

-١٠-

مع انتهاء شهر أيلول، وبداية تشرين الأول، بدأت التحضيرات للعام الدراسي الجديد في دهوك، وتوجب علينا اخلاء المدارس، والتوجه للمخيمات التي أعدوها للنازحين. تساقطت الأمطار مبكراً تلك السنة، فعلاً انه غدار شهر تشرين (ومن دون انذار عغفلة بشتي) كما تقول الأغنية!

الجميع يحضرون حاجياتهم البسيطة التي استلموها من منظمات الاغاثة الانسانية، بطانياتهم وأدوات الطعام البلاستيكية، طباخاتهم الصغيرة (الجولة) والملابس المستعملة (البالة) التي تصدّق عليهم الأهالي القريبين من المدرسة. وكانت كل عائلة قد استلمت رقم الخيمة وموقع المخيّم على كارت صغير هو الفرصة الوحيدة المتاحة أمامهم لمواجهة شتاء يبدو قاسياً من البداية!

اتصل بي شيردل قبل الظهيرة بقليل، وقال: (احمل أغراضك وتعال كما اتفقنا البارحة) قلت بمرارة: (كل أغراضي هي حقيبة والدي الجلدية وفيها كاميرتي وحاسوبي، ودفتر قديم لمذكرات المرحوم أبي، وبعض المستمسكات).. ضحك وقال: (هذا ما تحتاجه صديقي، أنتظرك الآن).

كان يوم جمعة وشيردل في عطلة، حملت حقيبتي وودعت معارفي في المدرسة متمنياً لهم ولي العودة السريعة الى مدننا المحتلة، كان وداعاً حزيناً وكأننا لن نرى بعضنا أبداً، قلت لهم (حتما سنلتقي وسأزوركم، وستتحرر مناطقنا ونعود كما كنا، ورغم انني في قرارة نفسي لم أكن مؤمناً بما اقول، ولكنني أنطق به كمجاملة وتخفيف عني وعنهم).

استقبلني شيردل وعانقني بحرارة، أهلا بك في بيتك الجديد.. وأخيراً لن أعيش لوحدي، سيكون معي من يشاركني شقتي. وضعت حقيبتي على الطاولة، وارتميت على الأريكة منكسراً كجندي مهزوم.

قال شيردل بسخرية: (يبدو أن المدرسة أفضل من شقتي أيها اللعين!)، قلت بأسى: (أنا لا أفكر في نفسي، بل أفكر بآلاف النازحين المشردين الذين سيسكنون تحت الخيام في العراء والشتاء لا يرحم يا شيردل). فأردف قائلاً:

– تأكد يا صديقي ان الله لا ينسى أحداً، دعنا نتغدى ونرتاح قليلاً، (والله كريم).

في اليوم التالي خرجتُ أتمشى في شوارع دهوك وأسواقها، وكأني أراها للمرة الأولى، الحياة مستمرة والناس تتسوق، رأيت العمال مشغولين ببناء أحد المنازل فاستغربت أنا الذي اعتقدت ان الحياة توقفت منذ خروجنا من منازلنا، المقاهي والمطاعم ومحلات بيع الأحذية والملابس كلها مزدحمة، وانا أسير مندهشاً كأني من كوكب آخر! فمنذ شهرين كنت كقطار يسير على سكة واحدة من المدرسة الى المشفى وبالعكس دون ان انتبه الى استمرارية الحياة، والى اننا وحدنا نازحون وليس اهالي دهوك، وان الجميع يعودون الى منازلهم عدانا نحن الذين لم يعد لنا بيوت ولا مدن!

سرتُ في الطريق المؤدي الى السدة، كنتُ أعرف الدرب جيداً، فقد تمشينا فيه انا وشيردل عندما كنت أزوره أحياناً، شارع ضيق يشبه القنطرة مخصص للمشاة لا تصله السيارات، وفي منتصف المسافة بين السوق والسدة هناك مسرح صيفي متروك، كنا نسميه المسرح الروماني، وتصطف على جانبي الطريق وبمسافات متساوية مقاعد خشبية ثابتة تظللها الأشجار والنباتات والأزهار، يتخذها العشاق وكراً لهم. وحين تستمر في المسير تصادفك بعض المقاهي والمطاعم الصغيرة، وعلى جانبي الطريق يجري الماء في سواقي منتظمة وجميلة. وبعد مسير ما يقارب الساعة تصل الى السدة وترى نافوراتها الجميلة التي تتراقص على أنغام الموسيقى والأضواء المبهرة.

وصلت بوابة المتنزه الكبيرة التي يقف على جانبيها أسدان منحوتان من الحجر، وكأنهما حارسان للبوابة، فاستقبلتني الحدائق الرائعة، ومحلات بيع المرطبات وألعاب الأطفال. أكملتُ المسير الى نهاية المتنزه الذي يضم مدينة ألعاب مصغرة ترتادها العوائل مع اطفالها، اخترت لي زاوية بعيدة عن الضجيج، وجلست وحيداً أراقب الأطفال ولعبهم ومرحهم وصخبهم. استللت سيجارة من العلبة المدعوكة، وأشعلتها بهدوء، كنت أنفث الدخان كأن حريقاً شبّ في صدري، أراقب القمر وهو يشرق رويداً رويداً من خلف الجبل.. انبهرت بالمنظر الجميل، وكلّما بان القمر أكثر كانت ملامح حبيبتي تتجسد امام عيني، أغمض عيني وأبكي كطفل صغير..

***

قبل سنة وتحديداً في مثل هذه الأيام، كنت في وادي لالش المقدس أصور الطقوس والمراسيم الدينية التي تقام في عيد (جما) لمدة أسبوع، أعد التقارير والمقابلات وأنقل كل التفاصيل الى قناة تلفزيونية كنت أعمل مراسلاً صحفيا لها. سبعة أيام وأنا أتجول حافي القدمين أحمل كاميرتي، يغمرني الفرح، وتجللني الرهبة أمام هذه الطقوس الموغلة في القدم.

في اول ثلاثة أيام كانت تقام طقوس (سما) " وهي مجموعة طقوس تتخللها حركات درامية دقيقة لمحاولة ضمان الخلود، وفيه كان يدور سبعة رجال ثلاث دورات عكس عقارب الساعة، وتقام في

الليل تحديداً، حول نار (الجرا) المقسم الى سبعة أضواء ترمز الى سبعة كواكب، ويجري الدوران والالتفاف حول الشمعدان، العرش، مصحوباً بأنغام الناي والدف، وكان لكل دورة حسابات فلكية دقيقة تشير الى العناصر الأربعة (تراب – ماء – هواء – نار) وكذلك الى الفصول الأربعة، وخلال كل دورة كانوا يتوقفون (١٢) مرة اشارة الى أشهر السنة، وخلال كل دورة يمشون (٥٢) خطوة تمثل عدد الأسابيع، كانت الحركات دقيقة حيث يمد كل شخص رجله اليمنى خطوة طويلة مع وضع اليد اليمنى مفتوحة على الكتف الأيسر لتشير الى السماء مع انحناءة خفيفة ".

اليوم الرابع مخصص لتعميد (الأستورة) " وهي قطع قماش ملونة عددها سبعة، وتحمل سبعة ألوان تمثل ألوان الطيف الشمسي، وكل لون يرمز الى ملاك من الملائكة السبعة، يتم تعميدها بماء (العين البيضاء) ثم توضع فوق رأس أحد المتبرعين، بمرافقة القوالين والموسيقى المقدسة ثم تسلم الى بابا شيخ وبدوره يسلمها الى الأمير ليضعها على الأضرحة السبعة "

اليوم الخامس هو قلب العيد وسر فلسفته لأنه يوم (القاباخ) " والتي تعني في اللغات القديمة (الثور المقدس)، حيث يتم تقديم الثور كقربان يرافق ذلك إطلاق العيارات النارية، ثم يطبخ من لحم الثور طعام مقدس يسمى (سماط) يوزع على الزوار.

اليوم السادس هو تعميد (التخت) " الذي يتكون من اعمدة وحلقات تشير الى عدد أيام السنة يُحمل على الأكتاف بمرافقة الموسيقى المقدسة ".

واليوم السابع هو اليوم الأخير " لأن الخالق خلق الأرض والخليقة في ستة ايام وفي اليوم السابع انتهى من كل شيء".

تذكرتُ هذه التفاصيل وأنا نازح وحيد ومنكسر وعاطل عن العمل.. عدتُ أدراجي من حيث أتيت، وصلت الشقة مع حلول الظلام، تمددت فوق الأريكة أنتظر عودة شيردل من الصيدلية.

-١١-

أتابع الأخبار بقلق، فحالات الغرق في بحر ايجة أصبحت كثيرة مع تساقط الأمطار وارتفاع الموج، قبل يومين صُدمنا بغرق الطفلين (جود وملك) في بحر ايجة، المحزن انني أعرفهما فهما أولاد جيراننا، طفلان جميلان كفراشتين، زهرتان لما تتفتحان بعد، ابتلعهما البحر القاسي. ورغم حزني الكبير عليهما، الا أن قلقي على سارة وبناتها، وسعد وعائلته يطغي على كل شيء، لا اتصال ولا أخبار عنهم. منذ أسابيع وهم عالقون في تركيا، آخر اتصال معهم كان قبل خمسة أيام، قالوا انهم سيعبرون البحر قريباً، وقد اتفقوا مع المهرب وحضّر لهم قارباً مطاطياً..

مضى أكثر من اسبوع وقد انقطعت اخبارهم عنا تماماً، كنت أقضم اظافري وأذرع الممر في الشقة كالمجنون، ليست لدي رغبة في الطعام ولا النوم، والأرق كان يطبق أنيابه الحادة على رأسي.

البارحة غرقت عائلة من الشيخان، واليوم سمعنا بغرق عائلة أخرى من شاريا.. يا إلهي ما هذا اليأس الذي ألمّ بالناس؟ فمن نجا منهم من قبضة داعش، يغامر اليوم بعبور البحر! ما الذنب الذي اقترفناه حتى أمسينا مشردين ومهجرين تركنا مدننا ومنازلنا وذكرياتنا في وطن لم يعد وطننا، ولم يبق لنا خيار الا الفرار. فتارة الهروب نحو الجبال، والمشي لأيام تحت شمس آب اللاهب، وموت المئات عطشاً وخاصة الأطفال والعجائز، وطورا ركوب أمواج البحر في البرد القارس على أمل الوصول الى أرض آمنة يمكن لنا ان نعيش بها بسلام!

أجمع أحزاني وقلقي، وأتمدد في الفراش أحاول ان أنام لكن دون جدوى.

***

القلق جمرة ملتهبة، والخبر المفرح كالماء يطفئ سعيرها.. اخيرا وصلتني رسالة مقتضبة من سعد: (لقد وصلنا اليونان، وبعد ايام سنكون في المانيا.. نحن بخير).. كنت أعد العشاء عندما دخل شيردل، نظر الي بمحبة وصاح (الجماعة وصلو) اليس كذلك؟؟ ضحكت وقلت نعم.. كيف عرفت؟ قال مبتسماً: وجهك يفضحك يا

عزيـزي، حمـداً لله علـى سـلامتهم، اليـوم سـننام مرتـاحين.. احتضـنني بقوة وضحكنا.

يبـدو ان الأخبـار السـارة تهطـل علـي هـذا المسـاء علـى غيـر العـادة! بعـد العشـاء اتصـل بـي ابـراهيم رئـيس تحريـر جريـدة (اليـوم) وهـو زميلـي، وقـد شـاركنا معـاً فـي عـدة نـدوات ودورات صـحفية، وكنـت قـد أعـددت لجريدتـه الكثيـر مـن المقـالات والتقـارير الصـحفية والأخبـار والقصـص، وغالبـا مـا كنـا نتشـارك فـي نفـس الغرفـة مـن الفنـدق عنـدما تستمر الدورات الصحفية والمؤتمرات لعدة أيام.

قـال بلهجـة مداعبـة: (مرحبـاً أيهـا الكسـول، يبـدو أنـك تحـب العطلـة الدائمـة؟) أجبتـه بجديـة: (لا والله ولكنـك تعـرف ظروفـي). تـابع بحـزن: (سـلام أنـا آسـف لكـل مـا جـرى لكـم، ولكننـي أعرفـك قويـاً.. وأريـدك ان تعـود الـى العمـل فـي الصـحافة لتخـرج مـن هـذه القوقعـة التـي حبسـت نفسـك فيهـا، غـدا صـباحاً تعـال الـى المكتـب ونتفـاهم علـى التفاصـيل، ولا تقـل لـي لا.) حاولـت الـتملص منـه ولكنـه أكـدّ علـي: سـأنتظرك غدا.. مع السلامة وأقفل الخط.

***

شـجعني شـيردل علـى العـودة لعملـي فـي الصـحافة، وأكـد لـي أن الانغمـاس فـي العمـل مـن شـأنه ان يخفـف عنـي أحزانـي، ويخرجنـي مـن دوامـة الكآبـة التـي يمكـن أن تغرقنـي. والأهـم حسـب قولـه: (انـه يمكننـا بالعمـل خدمـة قضـيتنا، وخاصـة وأنـت صـحفي بـارع تسـتطيع ان توثـق

معاناتنا والظلم والرعب والموت الذي نتعرض له كل يوم. ولا تنسى يا سلام انه بإمكانك البحث عن المفقودين ومتابعة اخبارهم، وأعرف أنك باق ولم تسافر مع سعد لرغبتك القوية في البحث عن عائلة شقيقتك أمل ومعرفة مصيرها وان هذه المهمة هي هدفك الأساسي وسبب بقاءك هنا)، هززتُ رأسي موافقاً، ربت على كتفي برفق، حسناً سأوقظك معي غداً صباحاً.

في مكتب رئيس التحرير أحسست انني تلميذ في يومه المدرسي الأول.. لكن استقبال ابراهيم الحار، وكلامه الجميل وابتسامته الدائمة اعطاني ثقة كبيرة. قال بدبلوماسيته المعهودة: (اكتب ما تشاء وفي اي وقت تريد، لستَ ملزماً بموضوع معين، ولا بسقف زمني معين، لك كامل الحرية في عملك، وأنا متأكد بأنك ستأتينا بتقارير صحفية ومواضيع رائعة، أحمل كاميرتك وقلمك ولك كل التوفيق).

-١٢-

هذه اول مرة أخرج فيها للعمل دون أن تتبعني أمي، وتمطرني بدعواتها وبركاتها.. أمي لم تكن امرأة عادية، بل كانت ملاكاً يملأ البيت بالبركة، وتعطره بأنفاسها الطيبة، وتحوله الى حديقة جميلة بابتسامتها.. كانت تجتمع في شخصيتها عدة نساء (ممرضة، خياطة، وربة بيت)، فهي الممرضة التي لا تكل ولا تمل من رعاية أبي والاعتناء به وبنظافته، تحرص دائماً على أن يتناول أدويته في

موعـدها المحـدد، حتـى انهـا كانـت تقـيس ضـغطه بنفسـها، وتزرقـه بـالحقن إذا احتـاج الـى ذلـك، وبفضـلها لـم يشـعر أبـي يومـاً أنـه مهمـل أو يشـكل ثقـلاً وعالـة علينـا. كانـت تعـرف مـا يريـد قبـل أن ينطـق، فتخدمـه والابتسـامة لا تفـارق وجههـا، اضـافة الـى ذلـك كانـت خياطـة مـاهرة، تحتضـن ماكنتهـا وتعمـل الـى سـاعة متـأخرة مـن الليـل، وكـم عاتبهـا أبـي لأنهـا ترهـق نفسـها وتتعـب عينيهـا فيقـول لهـا مازحـاً: (سـتفقدين جمـال عينيـك مـن كثـرة الجلـوس الـى ماكنـة الخياطـة) فتـرد عليـه بابتسـامة: (مـا دمـت معـك لـن يصـيبني أي سـوء، رؤيتـك عـلاج لعيني).. أي قلب كانت تملكه هذه الانسانة ليتسع لكل هذا الحب؟

كانـت رحمهـا الله ربـة بيـت مـن الطـراز الأول، ومشـهورة بطبخهـا اللذيـذ، ويشـهد لهـا الجميـع بنَفَسَـها الطيـب فـي الطعـام، وكانـت تهـتم بكـل صـغيرة وكبيـرة فـي المنـزل، وتتـابع كـل تفاصـيل حياتنـا واحتياجاتنـا، وتهـتم كـذلك بجـدي الـذي يعـيش معنـا، ولا تخـرج مـن البيت الا للضرورات القصوى، فكانت ظل أبي الذي لا يفارقه أبداً.

***

بعـد سـنة مـن استشـهاد عمـي سـليمان توفيـت جـدتي حزنـاً وكمـداً، وكـان جـدي يقـول دائمـاً: (كـم أحسـدها لأنهـا رحلـت مبكـراً ولـم تـرَ ابنهـا الآخـر معوقـاً، ولـم تعـش ظـروف الحصـار والجـوع والظلـم الـذي نتعـرض لـه. يبـدو أن روحهـا كانـت طـاهرة، عكسـي أنـا الـذي سـأعيش لأرى مرارات الدنيا كلها! ويقهقه ضاحكاً).

ان وجود جدي معنا بروحه المرحة وسخريته وعبثه خفف عنا قسوة الحياة، فكان لنا بمثابة الأب الحقيقي.

في ظل الحصار وغلاء الأسعار وانهيار العملة (الدينار المظلوم)، لم يكن راتب والدي التقاعدي يكفينا لأسبوع، فاضطرت والدتي أن تعمل خياطة في البيت لتغطية نفقات المعيشة الصعبة، وبدأ أخي سلمان بالعمل وهو طفل صغير في علوة بيع الخضراوات والفواكه ليساعد أمي في مصاريف العائلة قبل أن يتوظف في معمل الغزل والنسيج في الموصل.

***

رحمك الله يا جدي كم أحسدك لأنك لم تشهد هذه الكوارث والمآسي التي ألمت بنا، ولم ترَ بعينيك هروبنا من مدننا ونزوحنا وتركنا بيوتنا للأوباش يعيثون فيها فساداً، كم أنت محظوظ يا جدي لأنك لم تسمع بجرائم داعش بحقنا وكيف قتلوا رجالنا وسبوا نساءنا وأحرقوا مزارعنا وهدموا بيوتنا وسرقوا كل شيء...

ها أنا ذا وحدي يا جدي بلا سند او جدار أتكأ عليه، أو بيت يضمني، قُتل أخي، وفقدت حبيبتي، مات أبي ولحقته أمي، ولا أعرف شيئاً عن شقيقتي المختطفة، وأشعر بالضياع في هذه الدوامة من المصائب والأحداث المتسارعة.

-١٣-

خرجتُ مبكراً دون أن أوقظ شيردل، حملتُ كاميرتي وحقيبتي الصغيرة التي تضم دفتر ملاحظاتي وأقلامي. تناولت الفطور والشاي في المطعم القريب من الشقة، واتجهت صوب كراج السيارات، استقللت السيارة التي تتجه الى شاريا، حسب الخطة التي اعددتها أمس، التقرير الأول للجريدة سيكون عن مخيم النازحين في شاريا، وتحديداً عن العوائل السنجارية هناك.

في الطريق امتلأ حلقي بالغصة، فقبل شهرين كان أبي معي، وكنا نعتقد باننا سنبقى ليومين أو ثلاثة في شاريا، ثم نعود بعدها الى بيوتنا بعد ان تهدأ الأوضاع!! ولم يخطر ببالنا أبداً أن نبقى نازحين لأشهر أو ربما لسنوات.!

وصلت الى شاريا وكان المخيم قريباً من الشارع العام، مئات الخيم منصوبة على مرمى النظر، تعيش تحتها العوائل الهاربة من الموت في سنجار، وبعض العوائل النازحة من بعشيقة وبحزاني.

في مدخل المخيم سلمتُ على الحارس وعرفته بنفسي، رحب بي وطلب مني تسجيل أسمي وتاريخ الزيارة ورقم موبايلي.. دونتُ المعلومات المطلوبة في السجل، وأكملتُ مسيري الى داخل المخيم وقلبي مقبوض من الحزن، وغيمة من الكآبة تلفني.

***

الوقت ضحى، والجو ينذر بقدوم الشتاء، كان الكثيرون يجلسون خارج خيمهم، والأطفال يتراكضون حفاة، التقطتُ لهم بعض الصور وهم يتضاحكون، ويتقافزون، رثيت لحالهم، هؤلاء الصغار لا يفقهون شيئاً غير اللعب، ترى كم طفلاً بأعمارهم مات عطشاً في الجبل؟! استقبلني بعض الشباب، وسألوني: بماذا نساعدك أستاذ؟ قلت لهم: أنا صحفي من بعشيقة وأعد تقريراً عن المخيم وعن العوائل السنجارية بالذات. اصطحبوني الى احدى الخيم، هنا تعيش عائلة سنجارية، دخلنا وسلمت على رجل عجوز وبجانبه امرأة بعمره خمنت انها زوجته، وفي زاوية الخيمة كانت تجلس امرأة يبدو من ملامحها انها تجاوزت الأربعين من عمرها. عرفتهم بنفسي وسألتهم ان كان بالإمكان أن يروا لي قصتهم؟ فقال العجوز بلغة سنجارية أفهم عليها: (روشي ستحكي لك انها تتكلم العربية أحسن منا).. كانت روشي موشحة بالبياض وعيناها خاليتان من البريق، الحزن العميق يغلف تجاعيد وجهها، كان صوتها متهدجاً وكلماتها تشبه حشرجة تخرج من صدر انسانة تحتضر :(بماذا أخبرك يا أخي؟ لقد فقدتُ سبعة من أفراد عائلتي، قتل الدواعش زوجي وأولادي الأثنين أمام عيني، وأخذو بناتي الثلاث وتركوني وحدي في البرية، بعد أن ملأوا سياراتهم بالفتيات الشابات، وأخبروني بأنهم سيعودون ويأخذوني معهم.. سقطتُ مغشياً علي، وعندما أفقت حملت طفلي الصغير وهربت باتجاه الجبل.. مسحت دموعها، وسيطرتُ أنا على دموعي

كـي لا أبكـي بحضـورهم وأفقـد خيـوط القصـة، تابعـت روشـي كلامهـا وقالـت: مشـيت طـوال الليـل وطفلـي يبكـي مـن الجـوع والعطـش، وعنـدما وصـلنا الـى مشـارف الجبـل انهـرت مـن التعـب، فاحتضـنت صـغيري ونمـت خلـف صـخرة كبيـرة.. اكملـت المسـير عنـدما طلـع النهـار، وتحـت الشـمس الحارقـة اسـتمررت بالمشـي الـى ان فقـدت وعيـي، صـحوت علـى صـوت مجموعـة مـن النـاس أمسـكوا يـدي وسـندوني، وأعطـوني بعـض المـاء، حملـوا الطفـل ولكنـه كـان قـد فـارق الحيـاة مـن العطـش والحر)..

***

اعتـذرتُ مـنهم لأننـي فتحـتُ جـروحهم، وجـدّدتُ احـزانهم، شـكرتهم لسـعة صـدرهم وتعـاونهم معـي، وخرجـت مسـرعاً مـن الخيمـة قبـل أن أنفجـر باكيـاً، فـي الخـارج ولشـدة ارتبـاكي اصـطدمت بشـخص فسـقط منـي الـدفتر، وعنـدما رفعـت عينـي رأيـت شـابة جميلـة، ابتسـمتْ وقالـت: آسـفة.. التقطـتْ الـدفتر ونفضـت عنـه الغبـار وأعطتنـي ايـاه. قلـتُ بخجل:

– عفواً لم أنتبه

– يبدو أنك صحفي؟

– نعم.. وأسمي سلام من بعشيقة

– وأنا ديلان من كوجو

فتحتُ عيني على سعتهما وقلت باندهاش: حقاً أنتِ من كوجو؟

– لا تستغرب فأنا من القلائل الذين نجو من كوجو، كثيرون يتعجبون مثلك عندما يعرفون انني من كوجو، كأنهم يرون شبحاً أو ميتاً قام من القبر!

– عذرا لم أقصد.. أنا هنا لأعد تقريراً عن النازحين

– وأنا أخصائية نفسية أعمل مع منظمة انسانية، وأحياناً أساعدهم في توزيع المساعدات واعداد قوائم الأسماء وتنظيمها

– علي العودة الآن الى دهوك لإكمال تقريري، وارساله الى الجريدة.. تشرفتُ بمعرفتكِ

– وأنا أيضاً.. اذا احتجت الى اية مساعدة فأنا متواجدة هنا أغلب الأوقات..

شكرتها وعدتُ أدراجي.

وصلت الشقة قبل الظهيرة بقليل، لم أغير ملابسي، أشعلت سيجارة ووضعت الحاسوب أمامي، وأفرغت فيه كل الحزن والمعاناة التي سمعتها من روشي. كنت أنضد القصة ودموعي تنهمر، بعد نصف علبة سجائر، وبحر من الدموع وساعتين من العمل أنهيت التقرير وأرسلته مع الصور الى رئيس التحرير.

فجأة شعرت بجوع غير طبيعي، تركت كل شيء، فتحت الثلاجة والتهمت كل ما يمكن أن يؤكل، غيرت ملابسي واستلقيت فوق السرير..

استرجعتُ ملامح تلك الشابة السنجارية، ثقتها بنفسها، وشيء غامض في عينيها ذكرني بنرجس.. ترى ما قصة هذه الفتاة وكيف نجت من مجزرة كوجو؟!

-١٤-

زيارة ديلان الى بيت خالها شرو في مدينة (سنوني) الواقعة شمال سنجار، أنقذتها ولكنها أفقدتها جميع أفراد عائلتها.. وصارت هذه الزيارة الملعونة تُثقل على ضميرها مثل صخرة عملاقة، وتملأ روحها شعوراً بالذنب والتقصير. لم يعد يهمها شيء في هذه الحياة غير البحث عن أمها شيرين وأختها جيلان المختطفتين.

في عيني ديلان الواسعتين يمتزج الثلج مع العسل، ليصير حزناً خرافياً هائلاً، شعرها شلال ذهب، هي بيضاء كغيمة، شفافة كجدول ماء في كلي (كَرسي)، طويلة كصبر فلاح، وجهها مدوّر مثل تينة من بساتين سنجار، فمها كزهرة الرمان وأصابعها كالبلّور.

ديلان هي الأخت الكبرى والوحيدة لأربعة أخوة، ولم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها بعد، وقد أنهتْ قبل شهرين دراستها الجامعية في كلية التربية قسم علم النفس. وبدلاً من البحث عن وظيفة كانت ديلان تبحث كمجنونة في مخيمات النازحين عن أية ناجية هربت من براثن عصابات داعش المجرمة، تسأل بلهفة وإصرار عن كل معلومة مهما كانت صغيرة قد توصلها لمعرفة شيء عن المصير المجهول لوالدتها وأختها المختطفتين، واللتان فُقِدتا اثناء

اجتياح الأوباش لقريتها الصغيرة (كوجو) الواقعة جنوب مدينة سنجار.

كانت تكرر على مسامع خالها: (لو لم آتِ اليكم في ذلك اليوم الأسود لكنتُ الآن مع أمي وأختي)! تبكي بحرقة و تصرخ بهستيريا، فيحتضنها خالها بحنان ويهمس في اذنها بحسرة: (كل شيء مُقدّر يا أبنتي)..! تواصل ديلان نشيجها قائلة: ما فائدة نجاتي يا خال؟ لا أريد النجاة.. أريد أمي وأختي جيلان، أعرف أن أبي وأخوتي قد قُتِلوا، لكن أمي وجيلان ... أين هما الآن، ترى ماذا فعلوا بهما والى أي أرض بعيدة نقلوهما، تصرخ أمي.. أمي.. وتسقط مغشياً عليها.

***

تكررت لقاءاتي مع ديلان في مخيم شاريا، وعرفت منها أن هدفها الوحيد في الحياة هو البحث عن والدتها وشقيقتها، وأن عملها في المنظمة هو جزء من هذا الهدف والخطوة الأولى في طريق البحث عنهما. حدثتها عن نفسي، وأنني وحيد مثلها وأبحثُ عن شقيقتي أمل التي فُقدت اثناء غزوة داعش لسنجار، ولا أعرف عنها أي شيء لحد الآن.. واقترحت عليها أن نتعاون في البحث وجمع المعلومات من النازحين، والناجين في المخيمات، علّنا نجد خيطاً يقودنا الى من نبحث عنهم. وافقت على الفكرة وقالت بحماس: (اليد الواحدة لا تصفق)، لمحتُ الاصرار في بريق عينيها، وأشرق وجهها فجأة بالأمل، وطفح بالتفاؤل على غير عادتها.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً فدعتني ديلان الى تناول القهوة مع خالها شرو في البيت الذي يسكنون فيه والقريب من المخيم، بعد عشر دقائق وصلنا الى هيكل دار في نهاية الشارع، قالت بحزن: (تركنا بيوتنا وها نحن نعيش في هذا الهيكل، الذي كان بلا أبواب ولا شبابيك الى أن جاءت إحدى المنظمات ونصبت لنا هذه الأبواب والشبابيك..)

استقبلنا رجل يملأ الشيب رأسه، والتجاعيد تحفر وجهه المتعب، عرفتني عليه ديلان: هذا خالي شرو، رحب الرجل بي بحرارة، وجلسنا على الأرض في غرفة خالية من أي شيء باستثناء البساط الذي جلسنا عليه.. قالت ديلان بابتسامة: هذا سلام من بعشيقة وقد حدثتك عنه، وهو وحيد مثلي، قال خالها بنبرة غضب: كيف تقولين ذلك يا ديلان؟ أنا خاله مثلما أنا خالك، ونحن أهله وعائلته...

شعرتُ بحميمية فقدتها منذ زمن، وأحسستُ بدفء العائلة الذي لا يعرفه الا من حُرم منه.

***

جاءتنا ديلان بالقهوة، كان مذاقها خرافياً، وكانت أحاديثنا بنكهة القهوة.. سألتُ الخال شرو عن أولاده، فقال: (لقد أرسلتهم ثلاثتهم الى الجبل، ليقاتلوا هناك مع أبطال الجبل، ولولا مسؤوليتي عن هذه العائلة بنسائها وأطفالها، لالتحقت بهم أنا أيضاً وحملتُ السلاح معهم).

أقدر شعورك خال، ولكن لكل منا مهمة ومسؤولية يجب ان يقوم بها.. نظرتُ الى ساعتي، فقال الخال شرو: (ستتغدى معنا اليوم)، اعتذرت منه لكثرة مشاغلي، ووعدته بأنني سألبي دعوته في يوم آخر.

عدتُ الى الشقة ففاجأني شيردل باستقباله الساخر:

– أهلا استاذ شرفتنا..

جلستُ على الأريكة وأنا مهدود من التعب، فتابع شيردل سخريته مني:

– هل كفرتُ حين شجعتك على العمل؟ اتذكر آخر مرة تعيشنا فيها معاً أيها البائس؟

ضحكتُ وقلتُ له: (اليوم أنت معزوم على العشاء وعلى حسابي)..

– واو يبدو أنك أصبحت غنياً يا صديقي؟

قلتُ بزهو وغرور: (نعم.. اليوم استلمتُ أجوري من الجريدة، ولم أعد بحاجة اليك)...

تناول شيردل أول شيء صادف يده، وقذفني به، وبدأ يركض ورائي في الشقة كالمجنون، صائحاً بي: سأمسك بك وأقتلك أيها السافل...

–١٥–

مضت عدة أشهر ونحن ندور في المخيمات، أنا و ديلان، تجولنا في الكثير منها، مخيم خانك، كبرتو، قاديا، الشيخان، ايسيان، مام رشان، جم مشكو، بيرسفي، وغيرها من المخيمات.. كنا

نلتقي بالناجين، ونبحث عن أي خيط، أو بصيص أمل أو معلومة قد تفيدنا، وكنا كمن يبحث عن ابرة في كومة قش.!

خلال هذه الفترة أرسلتُ الكثير من التقارير الصحفية الى الجريدة.. كتبتُ عن (يوفا) الفتاة الصغيرة التي سقطت من سيارة البيك آب، عندما كانت سيارات الدواعش تلاحقهم، ولم يتوقف والدها لانتشالها لأن الدواعش سوف يصلون إليهم إذا توقفوا، هذا الأب ضحى بابنته الصغيرة لينقذ بقية عائلته من براثن الأوباش.. كتبتُ كذلك عن (داي بيري) العجوز التي كانت تعيش وحيدة ومنعزلة في كوخ طيني صغير على الطريق المؤدي الى قرية (دوهولا)، وكيف أقدمت عصابات داعش على حرقها وهي حية في كوخها، ولم يتبق منها سوى قلادة معدنية وحفنة من عظام..

كتبتُ عن جيلان برجس الطالبة في الصف السادس الاعدادي، التي قطعت شراييها وانتحرت، ولم تسمح للأنجاس أن يدنسوا جسدها الطاهر.. وعن (أبو جواد) الأب الذي اختطفوا بناته التسعة.. وعن كاترين التي انفجر بها لغم أرضي حين حاولت الهرب من أحد سجونهم.. كتبتُ عن (بهار) الفتاة الصغيرة التي اغتصبها الأوباش وتناوبوا عليها الى أن فارقت الحياة ففاضت روحها الى السماء، وظل صدى صرخاتها يملأ أرجاء المكان.. وعن العجوز (يوسف ابراهيم) الذي قطعوا رأسه لرفضه التخلي عن دينه..

وعن سارة التي أحرقت نفسها للتخلص من قذارة داعش... و.... و.....

ان مئات المجلدات لا تستطيع أن تستوعب ما تعرضنا له من ظلم وابادة وقتل وذبح وسبي واغتصاب وتشرد، ولا يمكن أن تكفي لتسجيل كل جرائم عصابات داعش التي ارتكبتها بحقنا نحن الشعب المسالم.

***

اتصل بي ابراهيم وأخبرني بأن طائرة مروحية ستنطلق بعد غد الى جبل سنجار وهي تحمل مساعدات ومؤن لإيصالها للعوائل المحاصرة هناك، وأعرف أنك متشوق للذهاب للجبل، لذلك طلبت من المسؤول عن ارسال الشحنة أن يصطحب معه صحفياً من جريدتنا، واقترحتُ اسمك، فما رأيك؟

أجبته متحمساً: (طبعاً موافق وسأحضر حقيبتي، وما أحتاجه من تجهيزات من الآن). قال: حسناً سأتصل بك غداً لتأكيد موعد انطلاق الطائرة، وأتمنى لك حظاً طيباً، وسأنتظر بلهفة تقاريرك وصورك من هناك. شكرته على ثقته وأقفلت الخط.

جلستُ وتنفست الصعداء، اشعلت سيجارة وأنا أفكر بالرحلة الى جبل سنجار، والالتقاء بالمقاتلين الأبطال، الذين يقاومون ببسالة قل نظيرها، ويواجهون بأسلحتهم البسيطة، وامكاناتهم الذاتية عصابات داعش المجهزة بأسلحة وآليات وهمرات مصفحة.. منذ أشهر وأنا

أتمنى أن أكون معهم في الجبل، وها هي الفرصة قد أتيحت لي، وسوف تتحقق رغبتي بالتواجد هناك.

اتصلت بديلان وأخبرتها بأنني سأطير بعد غد الى جبل سنجار، ولا أعرف مدة بقائي هناك. قالت بحزن: (أحسدك يا سلام، وكنت أتمنى أن أستطيع المجيء معك الى الجبل، كم سأفتقدك؟) قلت لها: وأنا أيضا. قالت بصوت حنون: (اعتن بنفسك جيدا وطمني عنك كلما سنحت لك الفرصة). قلت مداعباً: (سأتصل بك سبع مرات في اليوم). ضحكت وقالت: ومع هذا سأكون قلقة عليك.

- لا عليكِ سأكون بخير

- رافقتك السلامة ولك كل التوفيق.

***

أبلغني رئيس التحرير بموعد انطلاق الطائرة في السابعة صباحاً، وكان علي أن أكون جاهزا قبل هذا الموعد. جلسنا أنا وشيردل بعد العشاء نرتشف شايا بصمت، وكان شيردل ساهماً وحزيناً لأنني سأتركه وحده، فأخبرته ان مدة بقائي في الجبل هي أسبوع، ولا داعي للقلق، فقال شيردل: (أنت تخاطر بحياتك يا سلام، وأنا أخاف عليك، لأنك صديقي المقرب، وبمثابة أخي).. طمأنته ووضحت له ان ذهابي الى سنجار سيجعلني أشعر بأنني لازلت حياً، ومن شأنه أن يعطيني القوة والقدرة على خدمة قضيتي والدفاع عنها. فمنذ هروبنا من بعشيقة وتركها بأيادي الدواعش بلا مقاومة، وأنا أحمل

في روحي جرحاً لا يندمل، وأخجل من نفسي، وضميري يعذبني، وتلفّني الكآبة لتقصيري وتخاذلي في الدفاع عن مدينتي.

قال شيردل: (لا تبالغ في القسوة على نفسك، وتتهمها بالتخاذل، فقراركم بترك بعشيقة والحفاظ على أرواحكم ونسائكم وأطفالكم كان صائباً، والا كان مصيركم مثل مصير سنجار القتل والذبح والسبي، وإذا استطاع البعض من اهالي سنجار الاحتماء بالجبل والنفاد بجلودهم، فأنتم كنتم ستحاصرون ولن ينجو منكم فرد واحد). واستطرد قائلاً: (اسمع يا سلام هذه الحرب أكبر منك ومني، وقد شارك في هذه المسرحية القذرة دول عظمى وتدخلت فيها جهات اقليمية وأجندة خارجية وكنا نحن الضحية التي دفعت الثمن غالياً).

قلت له أقدر حرصك علي عزيزي.. وسألته ألم تقرأ عبارة باولو كويلو: (في المرسى تصبح كل السفن آمنة، ولكن هذا ليس الهدف من صنع السفن).

ضحك عالياً وعانقني بقوة، حسنا يا صديقي، ليكن ابحارك آمناً وموفقاً.

-١٦-

في طفولتي كنتُ أحلم بالطيران كثيراً، وأتخيل نفسي عصفوراً أو حمامة، أحلّق في الفضاء، لأصل الى أعالي الجبال، أو أجلس فوق الغيوم.. وكنت مولعاً بصنع الطائرات الورقية، وأتفنن في اختراع نماذج عديدة لها، بعضها على شكل فراشة وبعضها على شكل

دولفين، أو صقر، وكان معظم أصدقائي يطلبون مني أن أصنع لهم طائراتهم، مقابل حلوى لذيذة يعطونها لي ثمناً لأتعابي.. فيأتون بالأوراق والمقص، واللاصق، والألوان وعيدان المكانس المستهلكة ويجلسون أمامي متعجبين.. وحين أنتهي من عمل الطائرة أعلمهم كيف يجعلونها ترتفع الى أقصى حد ممكن، نحمل طائراتنا ونتجه الى التلة القريبة، يمسك كل منا خيط طائرته ويركض بها الى ان ترتفع، ثم نرخي لها الخيط فتقوم الرياح بحملها، ونفرح عندما نرى ذيول طائراتنا تتراقص في الجو، وتعلو طائراتنا شيئاً فشيئاً الى ان تفرغ بكراتنا من الخيوط، فنراقب بدهشة ونشوة انتصار كل منا طائرته ونتباهى انها ارتفعت أكثر من بقية الطائرات..

لم يكن لأهالينا القدرة على شراء الألعاب لنا، فالكل ينوء تحت ثقل الحصار، ومشغول بتوفير لقمة العيش لعائلته، ولم نكن نطلب منهم شراء لعبة لنا، لأننا نعرف بفطرتنا بأن ذلك مستحيل.! لذلك كنا نصنع ألعابنا بنفسنا.. صرنا نعرف كيف نصنع السيارات من الأسلاك المرمية، ونجمع أغطية القناني الزجاجية (باب بطل) ونثقبها من الوسط ونربطها بسلك معدني رفيع فتصير عجلات لسياراتنا، نصنع (الفرارات) من الورق، والزوارق من الكارتون، ونجمع البلاستك من المزابل ونحرقه ونصبه في علب زجاجية صغيرة لنحوله الى ميداليات وتماثيل صغيرة كأصابعنا، وبريئة كمخيلتنا.

أجمل وأبسط لعبة كان قد اخترعها صديقي سعد صاحب الخيال الخصب.. فقد جمع المئات من علب السجائر الفارغة (باكيت) في صندوق كارتوني كبير. كان سعد يدعوني وحدي للعب معه، نرتب العلب الفارغة ونصفّها الواحدة تلو الأخرى كما كنا نشاهد في التلفزيون حين يصفون قطع الدومينو. كنا نملأ غرفة الاستقبال الفارغة من الأثاث بالعلب، ونقضي الساعات في ترتيبها وعمل الأشكال الهندسية، وكتابة اسماءنا بهذه العلب، ثم تأتي اللحظة الحاسمة فنضرب العلبة الأولى بأصابعنا لتقع على العلبة التي تليها، وهكذا تتساقط العلب تباعاً بشكل جميل يبهرنا ويسعدنا، وحين ينتهي العرض نتقافز ونرقص فرحاً لإنجازنا العظيم.

-١٧-

حلّقت بنا الطائرة المروحية، وها أنا أحقق أخيراً حلمي في الطيران.. ولكن ليس كما كنت أتمنى في طفولتي.! بل لأصل الى أهلي المحاصرين في الجبل، والى المقاتلين الذين يتصدون لعصابات داعش الاجرامية، ويدافعون عما تبقى من أهالي سنجار الذين هربوا من مدنهم وقراهم وتركوا خلفهم كل شيء..

بعد أقل من نصف ساعة، وصلنا الجبل، استقبلنا المقاتلون بحفاوة، وبدأوا بإنزال حمولة الطائرة من المؤن والمساعدات، وبعد استراحة قصيرة، حضروا لنا فطوراً لذيذاً وشاياً على الفحم كان له طعم مذهل.. جلسنا في خيمة أعدوها لنا وتبادلنا أطراف الحديث،

جلس بجانبي شاب وسيم فارع الطول اسمه (عدنان) يحمل ملامح أخي سلمان، شعرت بمودة وحميمية تجاهه، ويبدو انه شعر بذلك فكان يبتسم لي على الدوام، ويعرفني بأسماء الموجودين في الخيمة، ويحكي لي بلغة عربية (مكسرة) ولكن جميلة عن الوضع في الجبل فكان يجعل من المذكر مؤنث، وبالعكس، فاضحك من طريقة كلامه.. قال عدنان: (هذا الخيمة مال أنت، سوي غراضك وارتاح شوية وبعدين ايش ما تريد انا اساعدك).. ابتسمتُ، وشكرته على اهتمامه، خرج الجميع من الخيمة وتركوني أرتب حاجياتي وارتاح قليلاً.

بعد أن أكملتُ ترتيب أغراضي، خرجت من الخيمة، كان الشتاء ينسحب رويدا رويدا، ليحل محله الربيع، ولكنني شعرت ببرودة الجو، وانبهرت بجمال المنظر. التقطت الكثير من الصور للطبيعة الخلابة، وأكواخ الطين، والخيم، وأكوام الحطب التي جمعها المقاتلون للتدفئة والطبخ، كانت الغيوم البيضاء، تشكل مع الجبل الذي بدأ يكتسي بطبقة من العشب الأخضر لوحة خرافية الجمال. سرت باتجاه نقاط الحراسة التي كانت لا تبعد كثيراً عن الخيمة، وصلت هناك بعد دقائق، سلمت على المقاتلين، وتبادلنا أطراف الحديث، كنت أسألهم عن وضعهم ومعنوياتهم، فيجيبون بابتسامة ومحبة، التقطت لهم الصور وهم يحملون سلاحهم ويضحكون.

عدت للخيمة، كتبت بعض الملاحظات والمعلومات التي سمعتها من المقاتلين لتساعدني في اعداد تقريري الأول.

اتصلت برئيس التحرير الذي هنئني على سلامة الوصول وسأل عن وضعي فطمأنته بأني في أفضل حال والجميع متعاونون معي، وسأبدأ بالعمل بعد قليل وسأرسل كل ما أكمله تباعاً، ضحك ابراهيم وقال: (اعتن بنفسك ايها المراسل الحربي.. واتمنى لك السلامة والتوفيق).

***

تناولت الغداء مع المقاتلين، ثم عدنا أنا وعدنان الى خيمتي، قال عدنان اليوم سأبقى معك في الخيمة، وغدا مساء سننطلق في مهمة، أنا ومجموعة من المقاتلين تحت أمرتي. سأعد لنا الشاي وبعدها نتحدث كما تريد..

كنا نرتشف الشاي، ونسمات بداية الربيع تداعب وجوهنا، فتعطي للمشروب الساخن بين أيدينا لذة اضافية، وطعماً مذهلاً.

كنت استمع الى حديث عدنان الشيق، واجاباته الدقيقة على أسئلتي فعرفت منه: (ان طول جبل سنجار يبلغ حوالي ٧٦ كم، وعرضه بحدود ١٣ كم ويتحصن في هذا الجبل نحو ستة آلاف مقاتل، يتوزعون على مجموعات كل مجموعة يقودها آمر). سألته عن أسماء بعض هؤلاء الأمراء؟ فعدد لي: (قاسم ششو في مزار شرفدين (شمال شرق الجبل)، مروان الياس بدل في كلي (كرسي)

شمال غرب الجبل، خلف مراد عطو في جل ميران (قمة الجبل)، مام قولو في ميهركان (جنوب الجبل)، وسالم اسماعيل، وبدل خلف، وقاسم دربو، وسعيد قاسم، وشيخ خيري، وشقيقه شيخ مجدل (جنوب غرب الجبل)، وآخرون ...

وحين سألته كيف كانوا يتدبرون أمرهم من ناحية الطعام والماء؟ أجابني وهو ينفث دخان سيجارته: (في البداية كنا نتزود بالطعام من القرى القريبة من الجبل، ولكن المؤونة لم تعد تكفينا، وحالياً نعتمد على ما يصلنا من مساعدات توصلها الينا طائرات الهليكوبتر، ولم يكن لدينا مشكلة في الماء لوجود العيون والينابيع الطبيعية، رمى عقب سيجارته وأردف قائلاً: حين كان الطعام ينفد منا، كنا نضطر لتناول ثمار البلوط لعدة أيام... ضحك عاليا وقال: ومرات كثيرة كنا نحصل على وجبات دسمة من لحوم الأغنام والماعز التائهة في الجبل).

***

تركني عدنان لأرتاح قليلا وأتابع العمل الذي جئت من أجله الى الجبل..

أكملت تقريري الأول وأرسلته للجريدة.. اتصل بي شيردل وعاتبني: الم أقل لك اتصل بي حال وصولك؟ أنا بخير عزيزي لا تقلق علي، واعتذرت عن عدم اتصالي به بحجة ضعف الشبكة وانقطاعها أحياناً، قال ممازحاً أعرف أنك مشغول كثيرا يا

(همنغواي) ولكن أرسل رسالة على الأقل في اليوم لأطمئن عليك، ضحكت وقلت له سأفعل، قال بمحبته المعهودة وكأنه أبي: (أعتن بنفسك سلام) ... وأقفل الخط.

اتصلت بديلان فأجابت بسرعة:

– كنت أنتظر مكالمتك منذ الصباح، ولم أتصل بك لأني أعرف وضعك هناك، وطبيعة عملك وانشغالك.. كنت قلقة عليك كثيراً.. الحمد لله على سلامة وصولك.

شكرتها لاهتمامها، وأخبرتها بأنني في أفضل حال، والكل هنا يتعاونون معي.

فقالت بنبرة كلها خجل:

– سلامي

فقلت بخبث: الله يسلمك عزيزتي

– أنا لا أقصد سلامات يا (غشيم)!!

تصنعت البلاهة وقلت ماذا تقصدين اذن؟

– سلام.. + ياء التملك ايها الذكي...!!

– اهاا مثل ديلان.. ديلاني يعني رقصة بلغة بحزاني وقهقهتُ عالياً

قالت بعصبية: (كم أنت سريع البديهية...)

ولكي لا أطيل التلاعب بأعصابها قلت لها: (اشتقت لك ديلاني)

– تقصد الدبكة البحزينية ؟

فقلت لها: لا.. ديلاني يعني (أنتِ لي)

– افتقدك سلام...

– وانا أيضاً..

– اعتن بنفسك واتصل بي كلما سنحت لك الفرصة...

–١٨–

عندما كنا صغاراً، كان أبي يحكي لنا عن (الفرمانات)* التي تعرض لها شعبنا المسالم، وكان قد دوّنها في دفتر مذكراته حسب التسلسل التاريخي لحدوثها، وقد استقى تلك المعلومات من مصادره التاريخية الكثيرة. لم يدر بخلدي يوماً أننا سنشهد فرمان (حملة إبادة جماعية) ونتعرض للقتل والسلب والنهب والسبي في زمن تطور فيه العالم، وصار قرية صغيرة، واصبحت الدول تحافظ على الحيوانات النادرة من الانقراض، فكيف بالبشر؟!

منذ قرون ونحن نتعرض لحملات الابادة، أكثر من سبعين حملة شنها علينا أعداء الانسانية مدعومة بفتاوى دينية، آخرها كان الفرمان رقم ٧٤ الذي قامت به ما تسمى (الدولة الاسلامية في العراق والشام) في آب ٢٠١٤.

وهذه أسماء وتواريخ أبرز الحملات والفرمانات التي ارتكبها المجرمون بحقنا، أنقلها من دفتر أبي لتبقى شاهداً على الظلم الذي تعرضنا له على مر القرون:

١- فرمان بدر الدين لؤلؤ (سنة ١٢٤٦ م)

٢- فرمان بدر الدين لؤلؤ (سنة ١٢٥٤م)

٣- فرمان جلال الدين محمد بن عز الدين يوسف الحلواني (سنة ١٤١٤ م)

٤- فرمان حسن بن زين أمير بهدينان (سنة ١٥٠٠ م)

٥- فرمان إسماعيل الصفوي (سنة ١٥٠٤ – ١٥٠٩م)

٦- فرمان السلطان سليمان خان القانوني (سنة ١٥٠٦م)

٧- فرمان مفتي الدولة العثمانية الرسمي أبو سعود العرادي سنة (١٥٧٠م)

٨- فرمان علي باشا جا نيولاد سنة (١٦٠٧م)

٩- فرمان صفوي بقيادة أمير اردلان خان احمد خان (١٦٢٦م)

١٠- فرمان صفوي فارسي بقيادة قارجي قاي خان سنة (١٦٣٠م)

١١- فرمان احمد باشا والي ديار بكر سنة (١٦٣٠م)

١٢- فرمان والي وان شمسي باشا (سنة ١٦٥١م)

١٣- فرمان والي ديار بكر مصطفى باشا فيراري (سنة ١٦٥٥ م)

١٤- فرمان كابلان باشا (سنة ١٦٧٤ م)

١٥- فرمان حسن باشا (سنة ١٧١٤ م)

١٦- فرمان والي بغداد أحمد باشا (١٧٢٣ م)

١٧- فرمان حسن باشا الجليلي والي الموصل (سنة ١٧٢٣ م)

١٨- فرمان حسين باشا سنة (١٧٣٣ م)

١٩- فرمان فارسي بقيادة الافشاري نادر شاه الصفوي (١٧٤٣ م)

٢٠- فرمان والي بغداد سليمان باشا أبي ليلى (١٧٥٢ م)

٢١- فرمان والي الموصل محمد أمين باشا الجليلي (سنة ١٧٦٦م)

٢٢- فرمان اسماعيل باشا سنة (١٧٧٠م)

٢٣- فرمان والي الموصل سليمان باشا الجليلي (سنة ١٧٧٣ م)

٢٤- الفرمان الثاني لسليمان باشا الجليلي (سنة ١٧٧٩ م)

٢٥- فرمان الحاج عبد الباقي باشا الجليلي سنة (١٧٨٥ م)

٢٦- فرمان والي الموصل عبد الباقي باشا الجليلي (سنة١٧٨٦ م)

٢٧- فرمان محمد بن حسن سنة (١٧٨٩ م)

٢٨- فرمان أيوب بك سنة (١٧٩٠ م)

٢٩- فرمان أمير طي فارس بن محمد سنة (١٧٩١م)

٣٠- فرمان والي الموصل محمد باشا الجليلي (سنة ١٧٩٢ م)

٣١- فرمان والي بغداد سليمان باشا الكبير (سنة ١٧٩٤م)

٣٢- فرمان عبد العزيز بيك ابن عبد الله بيك الشاوي سنة (١٧٩٩م)

٣٣- فرمان الوالي محمد باشا الجليلي (سنة ١٨٠٠ م)

٣٤- فرمان محمد الجليلي والي الموصل (سنة ١٨٠١ م)

٣٥- فرمان والي بغداد علي باشا (سنة ١٨٠٢ م)

٣٦- فرمان قباد بك أمير بهدينان مع والي الموصل محمد باشا الجليلي (سنة١٨٠٥ م)

٣٧- فرمان الوالي نعمان باشا الجليلي (سنة ١٨٠٧ م)

٣٨- فرمان سليمان القتيل سنة (١٨٠٨م)

٣٩- فرمان أحمد باشا الجليلي (سنة ١٨١٩ م)

٤٠- فرمان داود باشا والي بغداد (سنة ١٨٢٦ م).

٤١- فرمان أمير راوندوز محمد باشا المعروف بميركوره (١٨٣١ م)

٤٢- فرمان والي الموصل الثاني محمد باشا اينجه بير قردار (سنة ١٨٣٥ م)

٤٣- فرمان حافظ باشا (سنة ١٨٣٥ م)

٤٤- فرمان محمد رشيد باشا (سنة ١٨٣٦ م)

٤٥- فرمان والي الموصل عمر باشا (سنة ١٨٤٠ م).

٤٦- فرمان الوالي الموصلي محمد باشا اينجة بير قدار(سنة ١٨٤م)

٤٧- فرمان والي الموصل محمد شريف باشا (سنة ١٨٤٤ م)

٤٨- فرمان والي الموصل محمد باشا الكريدلي أوغلو (١٨٤٥م)

٤٩- فرمان طيار باشا (سنة ١٨٤٦ م)

٥٠- فرمان مدحت باشا (١٨٧٢ – ١٨٦٩ م)

٥١- فرمان الفريق عمر وهبي باشا (فريق باشا) (سنة ١٨٩٠ م)

٥٢- فرمان بكر باشا (سنة ١٨٩٤م)

٥٣- فرمان أسعد باشا الدرزي والي الموصل (سنة ١٩١٠م)

٥٤- فرمان التجنيد الإلزامي (عام ١٩١٣ م)

٥٥- فرمان قائم مقام سنجار عام (١٩١٧ م)

---

* (فرمان): لفظ فارسي معناه (أمر أو حكم أو دستور موقع من السلطان). والفرمان العثماني هو قانون بأمر من السلطان العثماني نفسه، وممهور بتوقيعه وهو نافذ من دون رجعة عنه.

***

-١٩-

جلسنا أنا وعدنان مساءً، نتبادل أطراف الحديث، كان معجباً جداً بجده الذي رافق (داود الداود) وشارك معه في معاركه ضد القوات الحكومية التي كانت تساندها آليات مدرعة، وطائرات بريطانية، وكانت هذه القوات تريد أن تفرض بالقوة قرار التجنيد الإلزامي على أبناء سنجار في مطلع العشرينيات من القرن الماضي.

كان يشيد بشجاعة رجال جبل سنجار، الذين رفضوا الانصياع لأمر الحكومة في حينه، وقاوموا بكل بسالة بما لديهم من أسلحة خفيفة ضد الطائرات، والمدرعات البريطانية حتى أنهم تمكنوا من اسقاط طائرتين بريطانيتين احداهما في قرية (مهركان) والثانية في قرية (تل الشور).

أشعل عدنان لفافة تبغ واعطاني اخرى، ضحك وقال: (دخن تتن كرسي أطيب من جكاير الباكيت).. حكى لي عن المعجزات التي كانت تحدث في المعارك نتيجة ايمان الرجال بقضيتهم، وروى لي

بعض القصص التي سمعها من جده: (في احدى المعارك كان (سليمان محمود) صديق جدي يقاتل في الخط الأمامي وبعد ساعات من المواجهة انسحبت القوات المهاجمة من (كلي بكرا) بعد فشلها في اختراق خط الصد وتكبدها الكثير من الخسائر في الأرواح والمعدات تجرّ وراءها أذيال الهزيمة.. وحين جلس المقاتلون بعد المعركة لتناول الطعام ومعهم (داود الداود) أخرج سليمان محمود رغيف خبز كان قد خبئه تحت قميصه، فاندهش حين رآه مليئاً بالثقوب من أثر الرصاص، وعرضه أمام الجميع، فقال له داود: (هذه الثقوب كلها ولم تصب بأذى) انها اشارة لنا يا رجال بأن الله معنا فصاح الرجال كلهم بصوت واحد: (لن يهزمونا أبداً)..

***

طالت سهرتنا وبقينا حتى ساعة متأخرة من الليل، وعدنان يحكي لي القصة تلو الأخرى عن بطولات المقاتلين والعمليات التي نفذوها ضد عصابات داعش، وأنا أدونها في دفتري كرؤوس نقاط حتى لا أنسى اية قصة. قال عدنان: (هؤلاء المقاتلون هم احفاد لأولئك الرجال الشجعان الذين حدثتك عنهم، انهم لا يبالون بالموت، وقد جاؤوا ليدافعوا عن قضيتهم، ويمنعوا الغزاة من التقدم، ان معنوياتهم عالية دائماً، ويتسابقون لتنفيذ المهمات ضد عصابات داعش، وصد هجماتهم، لقد قتلنا الكثير منهم واصطدناهم كالجرذان، وكان الدواعش الأنذال يتركون جثثهم تأكلها الكلاب في الجبل).

سألت عدنان عن البداية وكيف تشكلت هذه القوات؟ فقال: (في البداية كانت مهمتنا تأخير الدواعش ليتسنى للناس المدنيين فرصة للهروب الى الجبال، فكنا نشاغل المهاجمين من الدواعش اطول فترة ممكنة، واستطعنا أن نوقف تقدمهم في مدخل الجبل، وتدمير عجلاتهم وسياراتهم بالأسلحة المتوفرة لنا، كان لدينا قاذفة RBG7 ورشاشة أحادية استولينا عليها من احدى عجلاتهم المعطلة فبقينا نصد هجماتهم الى أن جاءتنا مجموعة من المقاتلين وساندونا، وجلبوا لنا المزيد من الأسلحة والذخيرة. في هذه المرحلة خسرنا العديد من الرجال الشجعان، وكانت هذه أصعب مرحلة في مقاومتنا، بعدها نظمنا صفوفنا وكان يتوافد علينا المتطوعون من جميع مناطق الأيزيدية مسلحين بالأيمان حاملين لنا كل ما يستطيعون من اسلحة وعتاد وطعام وضمادات طبية، وجاء معهم طبيب ومضمد لمعالجة جرحانا.

والآن أنت ترى كم صار عددنا، ولدينا مختلف أنواع الأسلحة التي أرسلت لنا كمساعدات، وكما قلت لك سابقاً توزعنا على مجموعات في كل منطقة مجموعة ولها قائد، وأصبحنا نحن الذين نهاجم داعش، وننصب لهم الكمائن، ونلتف حولهم ونصطادهم كالخنازير، ونستولي على أسلحتهم.

***

وحدهم أبطال جبل سنجار من استطاعوا أن يتصدوا لداعش وأوقفوا زحفهم على الرغم من امكانياتهم البسيطة، ووقفوا بوجه هذا العدو الشرس، الذي انهزمت أمامه جيوش مدججة بالأسلحة الثقيلة، والدبابات، تاركين ملابسهم العسكرية واسلحتهم ليستولي عليها الدواعش. لقد تحصن مقاتلو الجبل بأيمانهم اللامحدود بقضيتهم، فهم يملكون روحاً كبيرة وشجاعة فائقة يشهد لها الأعداء أنفسهم..

حاول الدواعش أن يخترقوا خط الصد في مزار شرفدين أكثر من مرة، بالانتحاريين الذين يرتدون الأحزمة الناسفة، ولكن أسود الجبل كانوا لهم بالمرصاد يمزقون أجساد الدواعش النتنة بالرصاص، فتتناثر اشلائهم وتتطاير متحولة الى طعام للكلاب. وعندما فشلوا في الوصول الى المزار، حاولوا أن يتقدموا بسيارات مصفحة ومفخخة، معتقدين أن المقاتلين سينسحبون من خلف السواتر تاركين لهم الطريق ليحققوا حلمهم في الوصول للمزار المقدس وتفجيره.

من قصص البطولة التي سمعتها من عدنان، هي قصة (فيصل) الفتى الشجاع الذي ثبت في موضعه وهو يرى السيارة المفخخة تقترب، وحين أصبحت المسافة بينها وبين الموضع الذي يختبئ فيه فيصل بحدود عشرة أمتار، أطلق عليها صاروخاً من القاذفة التي يحملها على كتفه، ودمرها قبل أن تصل الى هدفها، ومن شدة الانفجار وقوته سقط جدار الموضع فوق فيصل واصيب بكسر في

ظهره. هذه واحدة من الملاحم الكثيرة التي سطرها أبطال المقاومة بدمائهم الطاهرة لتبقى أسطورة جبل سنجار خالدة على مر الأجيال.

-٢٠-

بعد ثلاثة أيام عاد عدنان من مهمته القتالية، عانقته كأنه أخي، كنت سعيداً برجوعه سالماً. جلسنا وأنا كلي لهفة لمعرفة أخبار المهمة القتالية التي قام بها، أخرج من جيبه حفنة من نوى الزيتون ووضعها في يدي، هذه هي رصاصات داعش، انها لا تخترق جسدي، قلتُ مندهشاً: (حقاً ما تقول ام أنك تمزح؟).. ضحك وأكّد على ما قاله، وأضاف هنا يسمونني عدنان الشبح، حتى الدواعش يصابون بالهلع عندما يسمعون أسمي، أو يرون شيئاً أبيض يقترب منهم.

كنت أنتظر العودة من المهمة لأحكي لك قصتي العجيبة.. أحب أولاً أن أبلغك بنجاح مهمتنا، لقد قتلنا خمسة من الخنازير الدواعش، وجلبنا أسلحتهم معنا.. قلت له: (عدنان أنا فخور بكم، وبشجاعتكم أنت والرجال الذين كانوا معك)، فقال ووجهه يطفح بالفرح: (ونحن فخورون بك، وبعملك لأنك تنقل الحقائق الى العالم دون تحريف، أو تزوير، وبكل أمانة وصدق). فقلت: (هذا شيء بسيط جداً بالنسبة لبطولاتكم وتضحياتكم). قال: (لكل منا دور في هذه المعركة، نحن نقاتل بالسلاح، وأنت تقاتل بقلمك) وأردف ممازحاً: الا تريد سماع قصتي؟ قلت: بل أتحرق شوقاً لسماعها. فقال: حسناً عزيزي أسمع

مـا حـدث معـي: (عنـدما اجتـاح داعـش سـنجار، واحتلـوا قريتـي (زرافكـي)، كنـت أعمـل حينهـا حارسـاً فـي شـركة للمقـاولات فـي دهـوك، وأنـا الوحيـد المتبقـي مـن عـائلتي، التـي فقـدتُ عشـرة أفـراد منهـا، أبـي وأمـي وأخـوتي وأخـواتي وزوجتـي وطفلـي الرضـيع.. وفـي الليلـة التـي قـررتُ فيهـا الالتحـاق بمقـاتلي الجبـل، زارنـي جـدي فيمـا يشـبه الحلـم، وأعطـاني قمـيص (طـوق) أبـيض، لا زلـت أسـمع صـدى صـوته عنـدما قـال لـي بلهجـة آمـرة: (البسْ هـذ القمـيص وسـيحميك مـن كـل شـر).. اسـتيقظتُ مندهشـاً وأنـا أرى قميصـاً أبـيض بـالقرب مـن وسـادتي، كـان معطـراً برائحـة الزيـت المقـدس والبخـور الـذي ذكرنـي بـوادي لالـش المقـدس. حملـت القمـيص قبّلتـه ووضـعته فـوق رأسـي فهـو (خـلات) هديـة مـن جـدي، شـممتُ عطـره وقـد تملكتنـي الرهبـة، فشـعرتُ بصـفاء روحـي، وقـوة داخليـة هائلـة تغمرنـي بالضـياء والنـور.. مـن يومهـا وأنـا أرتدي هذا القميص).

***

أذهلنـي عـدنان بقصـته التـي تـدخل فـي بـاب المعجـزات، تحسسـتُ نـوى الزيتـون فـي يـدي، وأنـا عـاجز عـن أي تفسـير لهـذا الأمـر الخـارق، وكيـف يمكـن أن يتحـول الرصـاص الـى نـوى زيتـون لا تختـرق الـدرع الربـاني الـذي حصـل عليـه عـدنان مـن جـده. سـالتُ عـدنان: متـى اكتشـفت هـذا الأمـر؟ قـال وهـو ينفـث دخـان لفافتـه: (فـي مهمتـي الأولـى تقـدمتُ ومعـي اثنـين مـن المقـاتلين الـى موضـع يختبـئ فيـه الـدواعش،

وعندما أصبحنا قريبين من المكان، أمرت من معي بالبقاء وتأمين التغطية لي اذا اكتشف الدواعش اقترابي منهم. استمررت بالزحف الى أن بدأتُ أسمع همهمات الدواعش، ففاجأتهم وأمطرتهم بوابل من الرصاص، كانوا ثلاثة خنازير، سقطوا أرضاً، وقفت فوقهم وأكملت الرمي عليهم، من بعيد أطلق أحدهم النار علي فسقطتُ أرضاً، عندها ركض أصدقائي بسرعة وأطلقوا النار على الداعشي الذي كان يقترب فأردوه قتيلاً.. حملوا أسلحة القتلى الأربعة، وسحبوني بسرعة، لم أكن أشعر بأي ألم، فقلت لهم أستطيع المشي لوحدي، مشينا الى أن وصلنا صخرة كبيرة نحتمي خلفها من هجوم مباغت للأوباش الغادرين.. استعدنا أنفاسنا، فتحسست جسمي، لم يكن هناك جرح في جسدي، ولا أي أثر للدماء، وبين طيات ملابسي وبين قميص الطوق الأبيض الذي كنت أرتديه شعرت بوجود حبات تشبه الرصاص، أخرجتها ودققتُ النظر فيها، فاذا هي حبات لنوى الزيتون، أعطيتها لرفاقي ليتأكدوا منها، فاستغربوا واندهشوا، حينها صرخ رفاقي بأعلى اصواتهم (هولا طاووسي ملكا.. هولا شرفدينا).

***

كان عدنان يقلّب حبات الزيتون بين يديه، وأخبرني بأن جده كان يصنع منها (سبح) أو مسابِح – جمع سبحة أو مسبحة – ويهديها لأصدقائه، ولضيوفه كتذكارات وتعبير عن المحبة. كان يجمع نوى الزيتون، يختار منها الحبّات الكبيرة ويعزلها، ثم يقضي الساعات

الطويلة في حك أطراف كل حبة بواسطة سطح خشن الى أن يبان لبها، بعدها يثقبها بإبرة طويلة ساخنة، وكان يحرص أن تكون كل الحبات بحجم وشكل واحد، وفي المرحلة الأخيرة يحضر خيطاً قوياً يصنعه بنفسه، ويدلكه بالشمع ليكسبه المتانة والنعومة، ويمرره في الحبات المثقوبة ليجعل منها قلادة صغيرة، ثم يتوّجها بأكبر الحبات فتصير مسبحة جميلة.

لقد تعلمت من جدي كيف أصنع المسبحة، وأحيانا أتسلى بهذه الهواية، وأبعد عني شبح الذكريات الأليمة، فأنشغل بها وأقضي ساعات فراغي واستراحتي بعمل المسابح وما يتطلبه ذلك من تهيئة وتحضير وتفاصيل صغيرة ودقيقة، تنتشلني مؤقتاً من الغرق في بحر أحزاني.

***

-٢١-

عشرة أيام قضيتها في الجبل بين المقاتلين، هؤلاء الرجال الذين تجتمع فيهم البساطة، والتواضع والشجاعة، والتضحية. وقد قال عنهم أحد الشعراء:

"المقاتلون في سنجار، لا يحملون نجوماً فوق أكتافهم

فكل مقاتل تحرسه ألف نجمة في السماء..

انهم لا يضعون فوق رؤوسهم خوذ

فهم شامخون كقمم الجبال، يتوّج جبينهم الضياء..

لا دروع تحمي صدورهم

فالدرع صنع للبشر ولم يصنع للأنبياء".

كان عدنان يرافقني في أغلب جولاتي، قمنا بزيارة المقاتلين في مزار شرفدين، الذي ينتصب في أرض منبسطة أسفل الجبل، وقضينا ليلة معهم وسمعنا منهم الكثير من قصص البطولة التي جعلت من المزار قلعة للصمود ورمزاً للمقاومة والتحدي. وفي صباح يوم الأربعاء ذهبنا الى (مزار بيري أورا) إلَه الغيم والمطر، وبقينا هناك الى ما بعد الظهر، وفي يوم آخر اتجهنا الى (كلي كرسي)، الذي يعتبر من أجمل المناطق في سنجار، تملأه المدرجات الخضراء التي تزرع بالتبغ (تتن كرسي المشهور)، وجلسنا عند (كفري كلو) تحت ظل شجرة الزركوز، الشجرة المقدسة التي تُصبَغ بأوراقها المغلية مع الماء (الخرقة) المصنوعة من الصوف الخاصة برجال الدين من طبقة الفقراء، فيتحول لونها من الأبيض الى الأسود.. ثم صعدنا الى منطقة (الهارونية) وتناولنا الغداء هناك.

كان من المقرر أن أبقى أسبوعاً واحداً، لكن فرحتي كانت كبيرة عندما أبلغني رئيس التحرير بأن الطائرة ستتأخر ثلاثة أيام لحين اكتمال وصول المساعدات وتحميلها.

في الليلة الأخيرة حزمتُ حقائبي، فالطائرة ستصل صباحاً، وعلي أن أكون جاهزاً للعودة على متنها.. بقي عدنان معي الى منتصف الليل، كانت سهرة ممتعة، حكينا وضحكنا كثيراً، وقبل أن يخرج

اعطاني قلادة وقال: (ربما لا أراك في الصباح، لأنني سأخرج في مهمة قبل مطلع الفجر، هذه القلادة صنعتها من حبات الزيتون، وتتكون من ٧٤ حبة، بعدد الفرمانات التي تعرضنا لها، احتفظ بها كتذكار، ثم أردف مبتسماً: واهديها أنت بدورك الى حبيبتك أو خطيبتك في المستقبل، عانقني بحرارة، اتمنى لك سلامة الوصول، وان شاء الله سنلتقي عندما تتحرر سنجار وبعشيقة وبحزاني).

***

عند وصولي الى دهوك، اتصلتُ بشيردل واخبرته بأنني أنتظره في الشقة، فرح كثيراً، وقال ساخراً: الحمد لله على سلامتك يا (همنغواي)، اليوم سنتغدى معاً، سآخذ رخصة من المدير وآتي حالاً.. بعد نصف ساعة جاء شيردل احتضنني بقوة، كأنني فارقته منذ عام، وقال بصدقه المعهود: اشتقت لك كثيراً وشعرت بوحدة رهيبة بدونك. قلت له: وأنا كذلك ياشيردل، فقال: أنت كاذب كنتَ مشغولاً عني ولم تتصل بي سوى مرتين.. قلتُ له: دعنا من العتاب الآن، سأحضر لنا الشاي ثم اشتكي وعاتب براحتك، بعد قليل جلبتُ لنا قدحين من الشاي، ومع كل رشفة كان شيردل يسألني عن رحلتي، والمقاتلين، والوضع هناك في الجبل، فأتعمد الصمت ولا أجيب عن اسئلته، فيصرخ بي لماذا أنت ساكت يا (أوشو) الحكيم؟! فأقول له بهدوء لن أجيب عن أسئلتك الا إذا عزمتني على الغداء

في مطعم (خان كباب)، فيضحك عالياً ويقول حسناً أيها المتسول، استحم وغير ملابسك وسنذهب الى مطعمك المفضل.

بعد وجبة الكباب الدسمة تجولنا في السوق وعدنا الى الشقة.. جلسنا ندخن وأنا أحكي لشيردل عن القصص البطولية التي سمعتها من المقاتلين في الجبل، وكيف وقفوا بوجه أشرس تنظيم عرفه العالم، وتصدوا له بأسلحتهم البسيطة، وكبدوه الكثير من الخسائر بالأرواح والمعدات، وقد اعترف الدواعش أنفسهم بأنهم لم يجابهوا مقاومة في أي مكان، ومن أية قوة، مثلما قاومهم المقاتلون الأيزيديون في الجبل، كان شيردل صامتاً ومنبهراً بما أروي له، يكتفي بهز رأسه اشارة لي بالاستمرار وعدم رغبته في مقاطعتي..

وبعد أن استمع الي طويلاً قال: (سلام أنا فخور بك، وبشجاعتك، واتقانك لعملك، وأنا متأكد، بأنك ستكتب قصصاً رائعة عن أبطال الجبل سيخلدها التاريخ، وتبقى شاهداً يوثق ما تعرضنا له من إبادات على مر العصور).

***

كانت الساعة تشير الى الرابعة، خرج شيردل الى دوامه في الصيدلية المسائية، وتركني لأرتاح قليلاً، وقبل خروجه قال: الليلة سنسهر ونحتفل بعودتك صديقي العزيز فحضر نفسك لأنني لن أدعك تنام اليوم.

أخرجتُ لفافة (تتن كرسي) من العلبة المعدنية التي أعطاني اياها عدنان، شممتُ رائحتها بعمق، وأشعلتها.. أرسلتُ رسالة الى ديلان:

– مساء الخير.. وصلتُ دهوك قبل الظهر، وأنا الآن في الشقة.

– مساء الأنوار.. الحمد لله على سلامتك، لماذا لم تتصل الى الآن؟

– شيردل لم يتركني أتنفس منذ وصولي، وقد خرج توا..

– اشتقتُ اليك كثيراً سلامي

– وأنا أكثر ديلاني

– متى تأتي لزيارتنا؟ خالي يسأل عنكَ كثيراً

– غدا صباحاً سأكون في شاريا

– لن أدعكَ ترجع الى دهوك حتى المساء، خصص يوم غد لي وحدي، كم أتشوق لرؤيتك، والحديث معك.. وسأعد لك الغداء بنفسي

– كما تريدين عزيزتي.. لدي الكثير من الكلام لأقوله لكِ، وقد لا يكفي يوم واحد لكل ما أريد قوله لكِ

– حقاً؟

– نعم

– كلامك هو البلسم الوحيد الذي يشفي جروحي وآلامي، لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو لم تظهر فجأة في حياتي؟

– يبدو أن القدر يجمع المحزونين مثلنا، ليسند أحدهم الآخر..

– انتَ سندي كما تسند الساق الزهرة

- أراكِ غداً زهرتي

- أنتظركَ على أحرّ من الجمر سلامي

-٢٢-

اليوم هو الأربعاء الأول من شهر نيسان الشرقي، والذي صادف ١٥ نيسان بالتقويم الميلادي، وهذا أول عيد رأس السنة (سري صالي) يمر علينا ونحن نازحون، وبعيدون عن ديارنا. تذكرت طقوس هذا العيد الموغل في القدم، والذي تمتد جذوره الى الحضارة السومرية.. قبل سنة كنتُ في معبد لالش أصوّر الطقوس والاحتفال، حيث يؤدي رجال الدين في معبد لالش المراسيم مع تراتيل دينية مصحوبة بالعزف على الدف والشبابة (الناي)، وقبل الغروب يتجمع المئات من الوافدين يحمل كل منهم قنديلاً مضيئاً، فيتحول الوادي والجبال المحيطة به الى شجرة كبيرة مضيئة بالأنوار في مشهد خارق الجمال، تكلّله الرهبة والخشوع.

أما في بقية القرى والقصبات الأيزيدية، فيقصدُ الشباب والأطفال أطراف القرى والجبال والبساتين لجلب (بيبون نيسان) أزهار شقائق النعمان، ليعلّقوه فوق أبواب بيوتهم صباح العيد تبركاً بقدوم الخير. أما الأمهات فيسلقن البيض ويلونه بأنواع الألوان ويخبزن خبزاً خاصاً يسمى (سه وك) ويوزعنه على الجيران. كما يزرنَ المقابر وينذرنَ الخبز والبيض وبعض الحلوى عن أرواح أمواتهن. في حين يتوجه الرجال لزيارة المزارات (الخاسين) التي تقع في القرية. وبحلول

هذه المناسبة يذبح كل بيت ذبيحة قرباناً لأطفالهم وعائلاتهم. يختار الإيزيديون البيضة في هذا العيد إذ تمثل درة الخالق، ويسلقون البيض ويلونونه بأشكال وألوان تشير إلى تزيّن الأرض بالنباتات والورود. ويرمز البيض بالنسبة إليهم الى تجمد الأرض لأنه يتحول من الحالة السائلة إلى الصلبة بالغليان، ويفقسونه إذ يُمثل انفجار الدرة وتكوين الخليقة. ثمَّ يُلقي الرجال من كبار السن قشور البيض الملونة في الأراضي المزروعة رمزاً لنشر الخير والبركة. ويوزعون الخبز والبيض بعضهم على بعض دلالةً على اختلاط زادهم وتقوية روابط المحبة والأخوة.

وفي مساء يوم الخميس\ الجمعة ثالث أيام الاحتفال تجرى طقوس (سما) الدينية تستمر حتى فجر يوم الجمعة ويحتفل بأول (طوافة) مع شروق الشمس. وفي اليوم الرابع تجري مراسيم زيارة الطاووس (السنجق) الذي يبدأ جولته من معبد لالش الى كلي بحزاني أو (كلي السنجق) حيث ينصب الطاووس، ويحل ضيفاً ليوم واحد تؤدى له مراسيم الزيارة.. ثم ينتقل من بحزاني بموكب قدسي مهيب يصل منطقة (جاك ئيلا = الاله النظيف) وفي هذا المكان يتسلمه اهالي بعشيقة ليبقى هناك يوماً آخر.

موكب الطاووس أو (السنجق) تتقدمه طاوة لحرق البخور يليها رجال الدين من القوالين وهم يعزفون ألحان قدسية على آلة الناي (الشبابة) مصحوبة بنقر الدفوف، تليها الأحمال المقدسة (وهي

قطع الطاووس المفككة) محمولة على الأكتاف بينما يصطف أهالي المنطقتين على شكل خطين وهم حفاة الاقدام مادين ايديهم لتلمس بخشوع احمال الموكب التي يتم تقبيلها ودعوات الخير والبركة على ألسن جميع المشاركين مصحوبة بزغاريد فرح النسوة، وبتشابه عجيب مع الطقوس البابلية ،وكأنه موكب (الاله نابو) قد بدأت رحلته من معبد ايزيدا الى بابل للاحتفال بأعياد الربيع.

تلك الاحتفالات عرفت بأعياد الزاغموك في العهود السومرية وانتقلت الى البابليين بإسم اكيتو واصبحت أعياد بابلية الطابع بإحلال اسم مردوخ محل الاله الكبير ويلعب الاله نابو دور المنقذ المحيي فيها ويصل الى بابل في اليوم السادس من الاحتفال.

اعياد "الاكيتو" انتقلت من بابل عندما انهارت الامبراطورية البابلية وصعدت الى الامبراطورية الاشورية فارتحل "الاكيتو" الى نينوى، وقام "اشور بانيبال" برفع اسم الاله مردوخ من "ملحمة الخليقة البابلية" ووضع اسمه، وبقيت الطقوس كما هي وتستمر ١٢ يوماً مع احتفاظ "نابو" بنفس الوظائف، حيث يسجل لوح المصائر والاقدار للإمبراطورية الاشورية.

الاله نابو عاصر جملة من المتغيرات الاجتماعية والدينية والتبدلات الجوهرية في حضارات العراق القديمة مستقرا في آخر تبدياته على قمة "نبو" جبل إله الاديان الطليقة، تترجم قدسيته ايزيدياً باسم (طاوسي ملك) الى يومنا هذا.

حلقتُ ذقني، تأنقتُ، وضعتُ القلادة التي اهداني اياها عدنان في علبة فاخرة، وخرجت دون أن اوقظ شيردل الذي حذرني من ذلك، فهو يكره الاستيقاظ صباحا، ويبقى نائماً الى ما بعد الظهر في أيام العطل.

وصلتُ شاريا في العاشرة، كانت ديلان تنتظرني في المتنزه كما اتفقنا، سلمت عليها، وقلت لها: (ما أصعب أن أميزكِ بين هذه الزهور؟)، تحولت ديلان الى وردة حمراء من شدة الخجل، وقالت: (تحرجني دائماً بكلماتك الجميلة، فلا أعرف كيف أرد عليك؟).. اعطيتها العلبة، هذه هديتي، وقد جلبتها لكِ من الجبل، فتحتْ العلبة وصاحت باندهاش: يا الله ما أجملها، من أين حصلت عليها؟ قلت: لقد صنعها لي صديقي عدنان أحد أبطال الجبل، والذي حدثتكِ عنه كثيراً. فقالت: ولماذا خبئتها عني وقد مضى على عودتك من الجبل حوالي الشهر؟ قلت: (كنت أنتظر عيد سري صالي لأهديها لكِ).. قالت: سلام هذه القلادة أغلى من الذهب والماس بالنسبة إلي، يكفي أنك جلبتها لي، ثم طوّقت بها رقبتها، فصارت تشبه احدى ملكات بابل، جلسنا على أحد المقاعد في زاوية المتنزه وبقينا نتحدث الى منتصف النهار. نظرت ديلان الى ساعتها وقالت: لقد سرقنا الوقت، هيا لنذهب فخالي ينتظرك على الغداء.

-٢٣-

في صباح يوم الجمعة الموافق ١٣ – ١١ – ٢٠١٥ رافقني شيردل الى شاريا لأطلب يد ديلان من خالها شرو، وأخطبها رسمياً.. وضعت خاتم الخطوبة في إصبع ديلان بمباركة خالها وشيردل، واقتصر الحضور على العائلة وبعض الجيران المقربين.

وبعد ساعات سمعنا خبر تحرير سنجار، فصارت المناسبة مناسبتين، والفرحة فرحتين...

في اليوم التالي كنتُ مع أول فريق اعلامي يدخل مدينة سنجار، ذهلتُ لهول الدمار الذي لحق بالمدينة، لقد تحولت بلدة سنجار الجميلة الى أنقاض، وحجارة متناثرة. ولم يترك الأوباش شيئاً فيها، سرقوا ونهبوا كل البيوت، وأحرقوا المزارع، كانت الشوارع مليئة بالحفر التي أحدثتها القنابل والقذائف، والجدران مليئة بشعارات: (الدولة الإسلامية باقية وتتمدد)، وعبارات تهديد: (سنذبح من بقي منكم)، (جئنا لقطع رقابكم)، (هذه أملاك الدولة الإسلامية).

وخلال اسبوع تم اكتشاف العديد من المقابر الجماعية في أطراف المدينة، وفي القرى القريبة منها.. حينها طلب مني رئيس التحرير كتابة تقرير عن عدد الضحايا وعدد النازحين والمهاجرين الى خارج العراق.

كتبت تقريراً مفصلاً وأرسلته للجريدة وكان التقرير كالتالي:

بلـغ عـدد الضـحايا مـن الأيزيـديين نتيجـة الهجمـة الشرسـة التـي قـام بهـا التنظـيم الارهـابي فـي الثالـث مـن اغسـطس ٢٠١٤ وحسـب احصـائيات المديريـة العامـة للشـؤون الأيزيديـة فـي حكومـة اقلـيم كوردسـتان ومكتـب انقاذ المختطفين الأيزيديين في دهوك.

- كان عدد الأيزيديين في العراق نحو ٥٥٠،٠٠٠ نسمة.
- عدد النازحين من جراء غزوة داعش نحو ٤٠٠،٠٠٠ نازح.
- عدد الشهداء ١٢٩٣ شهيد.
- عدد الايتام التي افرزتها الغزوة كما يلي:
- الايتام من الاب ١٧٥٩
- الايتام من الام ٤٠٧
- الايتام من الوالدين ٣٥٩
- الاطفال الذين والداهم بيد داعش ٢٢٠
- المجموع الكلي للأيتام ٢٧٤٥
- عـدد المقـابر الجماعيـة المكتشـفة فـي شـنگال حتـى الان: ٧٠ مقبـرة جماعية. إضافة الى العشرات من مواقع المقابر الفردية.
- عدد الذين هاجروا الى خارج البلد (١٠٠,٠٠٠) تقريباً.

فـي الثالـث مـن اغسـطس ٢٠١٤ وقـع فـي أسـر ارهـابيي داعـش (٦٤١٧) فـرد أيزيـدي مـن كـلا الجنسـين مـن بيـنهم (٣٥٤٨) إنـاث و (٢٨٦٩) ذكور.

***

استمرت زياراتنا أنا وديلان للمخيمات، والالتقاء بالناجيات، كنا نسمع منهن قصص عن جرائم وحشية من اغتصاب وتعذيب واذلال. لا يمكن لمخيلة بشرية أن تتخيل تلك البشاعات، ولا أن تتصور أن يقوم انسان بتلك الانتهاكات، وكل ذلك يتم تحت غطاء الدين، وتكفير الآخر المختلف في المعتقد او الفكر او الانتماء.

بحثنا كثيراً لعلنا نصل الى معلومة أو خيط يرشدنا الى عائلة شقيقتي أمل، أو أي خبر عن عائلة ديلان المفقودة، لكن دون جدوى...

كنت أوثق جميع القصص، وديلان تكتب اسماء الناجيات، وأسماء من تعرفوا عليهن في الأسر، ومن اية قرية أو مجمع من سنجار تم اختطافهن. وحتى أسماء الأطفال الذين تم التعرف عليهم في الأسر من قبل الناجيات كانت ديلان تدونها في دفترها، فربما تساعد هذه المعلومات عوائل المفقودين في البحث عن بناتهم وأطفالهم المخطوفين في يوم ما.

ومن أغرب القصص التي سمعتها قصة (قاسو) الشاب الأسمر الضخم وصاحب العضلات المفتولة، التي حكاها لي وحدي وعلى انفراد حيث قال: (كنا ثمانية رجال، ربطوا أيدينا من الخلف وأمرونا أن نبرك على ركبنا، جاء الأمير الداعشي قائد المجموعة وتفحص وجوهنا، أشار الي بأن أنهض، وضعوني في سيارته، وساروا بي في طريق ترابي الى أن وصلنا منزل كبير يشبه القصر، أنزلوني

ورموني في إحدى الغرف وخرجوا، قلت في نفسي: يبدو أن الأمير قرّر أن يذبحي بيده، وفضل قطع رأسي على اعدامي بالرصاص.. دخل الأمير واستل سكيناً من الغمد المعلق في خاصرته، اقترب مني أمسك شعري من الخلف، وقطع وثاقي..

– ما أسمك ايها الشاب

– قاسو

– اسمع يا ولد، الكل هنا ينادوني (أبو سيّاف).. لقد أنقذتك من الموت، وأنت الآن ملكي أفعل بك ما أشاء، وإذا امتثلت لأوامري ونفذت ما أطلبه منك ستعيش هنا مثل ملك، وإذا عصيت أوامري سأقطع رأسك، هل فهمت؟

– وماذا تريد مني؟

– لدي مهمة الآن، وعندما أعود سأخبرك..

بعد ساعة دخل علي أحد مساعدي أبو سياف، وهو يحمل صينية فيها أنواع الطعام، والفواكه.. وقال: كُلْ واشرب ولا تخف، وهناك حمّام في زاوية الغرفة استحم وارتاح، ولكن حذاري ان تُغضب الأمير.

في المساء عرفتُ أن أبو سيّاف شاذ جنسياً، ومدمن مخدرات، وكنتُ أمام خيارين اما أن انكحه واشبع غريزته، واسكت الدودة التي تشتعل في مؤخرته، أو أن يقطع رأسي...

ضحك قاسو وقال: وها أنت تراني أمامك ولا زلتُ حياً! ثم أردف لقد أنقذني قضيبي من الموت، وفعل ما عجزت عنه الحكومة!!

-٢٤-

بعد سنتين وثلاثة أشهر، عدتُ الى بلدتي التي خرجتُ منها مجبراً، وتركتُ فيها كل ذكريات طفولتي، وأحلام شبابي، غادرتها هارباً وأنا أمسح دموعي، ودّعتها على أمل العودة بعد أيام، وطالت الأيام.. وأصبحت أشهراً، وامتدت الأشهر لتصير سنوات.. وها أنا أعود الى بلدة الزيتون وأمسح دموعي ثانية حزناً على ما رأيت من دمار وخراب.. البساتين الجميلة التي كانت تحيط بقريتي كما تحتضن الأم وليدها، اصبحت أراضي جرداء بعد أن أحرقها الأوباش.. المزارات التي كانت ترتفع فوق الروابي وتعطي لبحزاني وبعشيقة هويتها الخاصة، وجمالها المميز، فجرتها عصابات داعش، فتحولت مزاراتنا الى أكوام من الحجارة. حتى القبور لم تسلم منهم فحطموا شواهدها وكسروها.. سرقوا البيوت، ونهبوا المحلات والمعامل لم يتركوا خلفهم شيئاً، كأنهم جيش من الجراد هاجمت حقل سنابل.

كنت أسير بحذر وأنا أتجول في بحزاني، فلازالت هناك عبوات وقنابل وألغام مزروعة هنا وهناك في أطراف القرية. فقبل يومين انفجر منزل كان مفخخاً، عندما دخل صاحب البيت ليتفقد بيته، وأودى ذلك بحياته هو وابنه الشاب..

كان قلبي يتفطر حزناً وأنا أصوّر الخراب والدمار الذي حل ببلدتي الجميلة، الغريب أنني لم أشاهد أي حيوان في القرية، ولا عصفور أو حمامة...! حتى الحيوانات غادرت ولم تبق مع هؤلاء الوحوش القذرين.. صورتُ المزارات المدمّرة، والبساتين المحروقة، والبيوت المهدمة، وكلما اقتربت من المحلة التي أسكن فيها كانت تزداد ضربات قلبي. وصلت أخيراً الى بيتي، كانت الأبواب كلها مشرعة، وزجاج النوافذ محطماً ومتناثراً في كل مكان، جلستُ في وسط البيت أخرجتُ سيجارة دخنتها وبكيتُ طويلاً.

كانت كتب أبي متناثرة في كل مكان وأغلبها ممزقة، ومرمية في الخارج تحت المطر.. ولم يبق من أثاث البيت شيء، لقد سرقوا حتى سرير أبي وكرسيه المدولب.. انتشلت الكثير من الكتب ونفضت عنها الغبار واعدتها الى داخل غرفة أبي، وأغلقت الباب، كان قفل الباب الخارجي للبيت محطماً، فوضعتُ سلسلة كنت قد جلبتها معي وربطها بقفل كي لا يُفتح الباب. اتصل بي السائق وأخبرني بأن موعد رجوعنا قد حان، وخلال نصف ساعة كنا في طريقنا للعودة الى دهوك.

***

لقد حاول الدواعش محو كل آثار الديانة الأيزيدية، لذلك فجروا المزارات، والمراقد والقباب، معتقدين أنهم يستطيعون قلع جذورنا الموغلة في القدم من هذا الوطن.. وبحسب الاحصائية التي أرسلها

لـي صـديقي (ميسـر الآدانـي) فقـد نشـرتُ موضـوعه كـاملاً فـي جريـدتنا، وهذا نصه:

"المزارات الأيزيدية المفجرة من قبل ارهابيي داعش

بعـد ان سـيطر تنظـيم داعـش علـى المنـاطق الأيزيديـة فـي سـنجار وبعشـيقة وبحزانـي ومجمـع الرسـالة" بـابيرة" فـي الثالـث مـن اغسـطس / آب مـن عـام ٢٠١٤، قـام ارهـابيو دولـة الخلافـة الاسـلامية بتفجيـر (٦٩) مزاراً ومرقداً ومقاماً خاصاً بالديانة الأيزيدية.

اولا: المزارات المفجرة في سنجار/ شنكال

١- شيخ محما (سواري كيدوكي)

٢- شيخ فخر الدين

٣- شيخ مند

٤- شيخ عبد القادر

٥- شيخ عبد العزيز

٦- شيخ ابراهيم

٧- شيخ حسن

٨- ئيزي

٩- محما رشان

١٠- شيخ امادين

١١- بيرفات

١٢- شيخ رومي

ثانيا: المزارات والاماكن الدينية المفجرة في بعشيقة وبحزاني

أ: بعشيقة

١- شيخ مهمد باطني

٢- ملكي ميرا

٣- ناسردين

٤- عبد العزيز

٥- بابي شهيد

٦- يوسف القريني

٧- محمه رشان

٨- ابو ريش

٩- كورسيا سجادين

١٠- شرفدين

١١- شيخ موس سور

١٢- كافا ملكي ميرا

١٣- فقير موسى

١٤- فقير علي

١٥- عبدي ره ش

١٦- ستيا نفيس

١٧- شيخ حسن

١٨- امادين

١٩- فضلي

٢٠- ست حبيبي

٢١- ست خجيجي

٢٢- شيخ مهدي غريب

٢٣- كوجك جم

٢٤- قديم بلبان

٢٥- شيخ مهمد

٢٦- شيخ بابك

٢٧- حسن فردوس

٢٨- ابو ريش /مقام

ب: بحزاني

١- شيشمس

٢- سجادين

٣- شيخ حسن

٤- شيخ مهدي باطني

٥- ستيا حبيب

٦- بيربوب

٧- شيخ مند

٨- شيخ عبد القادر

٩- سيعد ومسعود

١٠- ست خجيجا

١١- شيخو بكر

١٢- ناسردين

١٣- ستيا ئيس

١٤- ستيا حبيب

١٥- بري شباكي

١٦- كافا بحزاني

١٧- ستيا بدري

١٨- شيخ موسى سور

١٩- بيري جروا

٢٠- عبدي ره ش

٢١- عبدي ر ه ش/ ئاقد

٢٢- مقام المارة . نيشان

٢٣- مقام عبد العزيز قاتاني

٢٤- مهمد رشان

٢٥- كافاني زرزا

ج: مجمع الرسالة (بابيرة)

١- شخسى باتي ٢- شيخ بابك

٣- شيخ مخفي ٤- شيخ حسن

-٢٥-

في يوم الجمعة من كل اسبوع كانت الكثير من العوائل تتوافد الى بعشيقة وبحزاني لرؤية منازلها والتأكد انها لم تهدم، او تُحرق، وأن سقوف بيوتهم لم تسقط بتأثير قذيفة أو صاروخ. كان الجميع يعرف بأن الدواعش الأوباش فتحوا كل البيوت وسرقوا ونهبوا كل شيء، ولكنهم كانوا يتمنون فقط أن يروا بيوتهم سليمة لم تهدم أو تُفجّر..

في زيارتي الثانية لبلدتي أصرتْ ديلان على مرافقتي، استأجرنا سيارة، وحضرّتْ ديلان الغداء، والماء، وملابس قديمة للعمل، وكفوف وكمامات وجزم طويلة، كما يفعل الكثير من العائدين.. كانت سعيدة لأنها سترى بيتنا المستقبلي، وستساعدني في تنظيفه، واعادة تأهيله، وكانت متحمسة لرؤية مزرعتي الصغيرة والعمل معي لنعيد لأشجار الزيتون خضرتها..

خرجنا من دهوك في الصباح الباكر، وبعد ساعتين وصلنا بحزاني، فقد كان الازدحام شديداً وأرتال السيارات تنتظر دورها لعبور السيطرة. أوصلنا السائق وهو من ابناء المنطقة، وقال حين تنتهون من العمل اتصلوا بي، أنا أيضا سأذهب الى بيتي وأنظف قذارات داعش. قلت له: حسناً سنبقى على اتصال..

فتحتُ القفل الذي ربطته بالسلسلة، ودخلنا.. انفجرتْ ديلان باكية وهي ترى الفوضى وشظايا الزجاج المكسور، وكومة النفايات والتراب، وخلو البيت من أي أثاث وكأنه هيكل فارغ.. مسحتُ

دموعها وأخبرتها بأننا سنعيده أفضل مما كان. وقلت مبتسماً: (لم نأتِ لنبكي بل لنعمل ونبني ونعيد الحياة والاخضرار لمدينتا). ارتدينا ملابس العمل، وبدأنا بالتنظيف، كنا نحمل كل النفايات والملابس المرمية، والبطانيات وكل ما لمسه الأوباش الى الخارج ونكومها لغرض احراقها حين نرجع قبل الغروب. نفضنا الغبار عن كتب أبي المتبقية، واعدناها الى رفوف المكتبة، سألتني ديلان: (هل قرأ والدك كل هذه الكتب؟) قلت بأسى: هذه بعض الكتب التي قرأها أبي، وقد قرأ أضعافها وكانت مكتبته تضم آلاف الكتب، ولكن هذا ما بقي منها.

بعد ساعات من العمل والتنظيف ورمي المخلّفات، طلبتُ من ديلان ان تصعد الى سطح المنزل وتضع لنا الغداء هناك. نزعنا الكفوف، والكمامات وغسلنا ايدينا ووجوهنا المغبرة، وجلسنا نتناول غداءنا تحت شمس الشتاء الدافئة.

بعد الغداء عدنا الى التنظيف ورمي القمامات التي تركها الأنجاس، واستمررنا الى الساعة الرابعة عصراً، أخرجتْ ديلان من حقيبتها أعواد بخور وقالت سنشعلها في البيت لنطرد كل الشر الذي تركه داعش هنا، أحرقنا البخور في الداخل، وخرجنا لنشعل كل النفايات التي جمعناها في الخارج، فتصاعدت أعمدة الدخان الى السماء، لم نكن الوحيدين الذين أشعلوا قذارات داعش، كل العوائل العائدة والتي نظفت منازلها من نجس الأوباش كانت تحرق تلك

الأكـوام مـن القـذارات، وحـين اتصـلتُ بالسـائق وخرجنـا مـن البلـدة، كانـت اعمـدة الـدخان تتصـاعد مـن جميـع أرجـاء القريـة وكـأن كـل العائدين اتفقوا على الاحتفال بهذه الطريقة.

***

فـي الزيـارة التاليـة قمنـا بتنظيـف المزرعـة، وإزالـة الأدغـال منهـا، وقطـع الفـروع المتيبسـة مـن أشـجار الزيتـون ورميهـا بعيـداً.. وفـي نفـس اليوم اكتمل وضع زجاج الشبابيك، لنحافظ على البيت من الغبار.

بعـد الظهـر خرجنـا للتجـول فـي القريـة، وبـدأت الحركـة تـزداد تـدريجياً، والنـاس تعـود الـى منازلهـا، وفتحـت بعـض المحـلات.. وقـد بـادرت مجموعـة مـن الشـباب بحمـلات تنظيـف للمنطقـة، وإزالـة الشـعارات السـوداء التـي كتبهـا داعـش علـى الجـدران، فغطوهـا بـاللون الأبـيض، ورسـموا فوقهـا رسـومات ولوحـات تـدعوا للتفـاؤل، وتحـث الأهـالي علـى العـودة. فوضـعوا فـوق الجـدران (بصـمة أمـل)، وزيّنوهـا (بغصـن الزيتـون)، وتحولـت جـدران المـدارس، والسـياج المحـيط برابيـة الشـيخ حسـن الـى لوحـات فنيـة تملأهـا الـورود، والأزهـار، والعصـافير، والعبارات الجميلة التي تدعوا الى المحبة والسلام.

وتطـوع الكثيـر مـن الرجـال بالبقـاء فـي المنطقـة وحراسـتها لـيلاً، الـى أن يعـود الأهـالي ويعـود الأمـن وتعـود الطمأنينـة وترجـع الحيـاة الـى طبيعتها...

***

توالت زياراتنا للقرية، وفي كل زيارة كانت ديلان تفاجأني باقتراح أو مبادرة.. ففي احدى المرات جلبت معها (قلم) لشجرة تين من جبل سنجار، كانت قد أوصت به أحد أقاربها ليجلبه من هناك، وقامت بغرسه في المزرعة الى جانب أشجار الزيتون، كانت تقول لي: (ستتعانق أشجار الزيتون والتين في مزرعتنا).. وفي كل مرة كنتُ أزداد تعلقاً بديلان وبتلقائيتها ومشاعرها الصادقة، وبراءتها.

كنا نساعد الشباب في حملات التنظيف، ونشاركهم في الرسومات، ونتناول الغداء معهم، ونتبادل الآراء، والمقترحات، ونبقى معهم الى وقت المغيب، ثم نعود سوية، لنلتقي في الأسبوع التالي.

***

بدأ (الخلمتكارين) بإعادة بناء المزارات بإمكاناتهم الذاتية، وبدعم ومساعدة من الخيرين، والمتطوعين في العمل، وكنا أنا وديلان من ضمن المتطوعين، فنأتي كل يوم جمعة للعمل معهم، وفي كل اسبوع كنا نرى القباب ترتفع لتعانق السماء كما كانت في السابق، وكلما اكتمل بناء مزار مهدم، كان رجال الدين و(القوالين) يتجمعون ويعزفون الألحان المقدسة (بالدف والشبابة)، وكان الناس يحتفلون، ويرقصون رقصة (الكوفند). كل ذلك كان يعطي للأهالي قوة معنوية كبيرة، واندفاع للعودة واصرار على العمل والبناء.

بعد عودة الخدمات (الكهرباء والماء) بدأت الكثير من العوائل بالرجوع الى مدينة الزيتون، والعيش فيها، أما العوائل التي لها اولاد

يـداومون فـي المـدارس، فكـانوا ينتظـرون انتهـاء العـام الدراسـي بفـارغ الصـبر ليعـودوا الـى منـازلهم التـي نظفوهـا وهيأوهـا.. كانـت الحيـاة تعـود تـدريجياً الـى بحزانـي وبعشـيقة، وازدادت حركـة السـيارات فـي شـوارعها، وازداد اقبـال الأهـالي علـى المحـلات والأسـواق التـي بـدأت بفـتح ابوابهـا لاستقبال الزبائن.

فـي زيارتنـا الأخيـرة كانـت بلـدة الزيتـون تسـتقبل الربيـع، وقـد تحولـت الـى عـروس جميلـة مكلّلـة بـالورود والأزهـار، وبـدأت بـراعم الزيتـون تتفـتح لتولـد أوراقـاً خضـر، ونهضـت المدينـة لتـنفض عنهـا رمـاد الاحتراق، وتعود كطائر الفينيق أكثر جمالاً وبهاء.

كنـت مـع مجموعـة مـن الشـباب نقـوم بتنظيـف الشـارع المجـاور لمدرسـتي الأولـى، عنـدما جـاءت ديـلان وبيـدها فرشـاة وعلبـة صـبغ، وطلبـت منـي أن أكتـب عبـارة علـى جـدار المدرسـة الابتدائيـة، تناولـت الفرشـاة وغمسـتها بالصـبغ، حينهـا ابتسـمت ديـلان ابتسـامتها الملائكيـة التي اعادت الي تمسكي بالحياة، فكتبتُ على الحائط بخط أنيق:
(عدنا، سنبني، ونبقى)..

آب – ٢٠٢٠

---

* الخلمتكـارين: هـم مجموعـة مـن المتطـوعين يقومـون بتنظيـف وترتيـب وإعمـار معبد لالش.

السيرة الذاتية:

نواف خلف السنجاري

العراق– بعشيقة

مواليد: ١٩٦٩

التحصيل العلمي: بكالوريوس علوم كيمياء/جامعة الموصل ١٩٩٣

المهنة الحالية: مدرس

* عضو الإتحاد العام للأدباء في العراق

* عضو في الإتحاد الدولي للصحفيين (I.F.J)

* عضو نقابة صحفيي كوردستان/ فرع نينوى

* اشترك في الكثير من الدورات والمؤتمرات الصحفية والمهرجانات الثقافية

* عضو الهيئة الأستشارية للبيت الثقافي / شعبة بعشيقة

* أغلب قصصه القصيرة وقصائده منشورة في الصحف والمجلات العراقية والعربية، مجلة العربي الكويتية، مجلة الجوبة الثقافية السعودية، مجلة الثقافة الجديدة، مجلة سردم، مجلة صوت الآخر، مجلة الصحفي، زهرة نيسان، نور لالش وغيرها... كما نشر في الجرائد العربية مثل الوطن السعودية، الشرق القطرية .والجرائد العراقية مثل الصباح، الزمان، التآخي، المؤتمر، طريق الشعب، الاتحاد، المدى...وغيرها.

* ورد اسمه في (الموسوعة الكبرى للشعراء العرب ١٩٥٦-٢٠٠٦) من إعداد الشاعرة المغربية فاطمة بوهراكة.

* ساهم في ملف القصة القصيرة جدا في مجلة المجرة الفصلية المغربية (عدد ١٣)

* ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية والكوردية.

*صدر له:

١- طائر الفينيق / قصص قصيرة جداً- اتحاد الأدباء الكُرد/ المركز العام - ٢٠١٣

٢- نرجسة في حقل ألغام / شعر- دار ماشكي للطباعة والنشر - ٢٠١٩

٣- مواسم / مجموعة قصصية - اتحاد أدباء نينوى - ٢٠٢٠

٤- نزيف الجبل / قصص قصيرة جداً - الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق - ٢٠٢٠.

البريد الألكتروني:nawafkhalaf69@gmail.com

الجوائز والتكريم:

١- فازت ثلاث من قصصه القصيرة جداً وهي:(اكتشاف- أرباع - قانون القبيلة) في مسابقة قصص على الهواء التي تذيعه الـ BBC بالتعاون مع مجلة العربي الكويتية.

٢- فازت قصته (عالم آخر) بالجائزة الثانية لمسابقة القصة القصيرة جداً التي اقامتها منتديات (واتا) ٢٠٠٩

٣- فازت قصته (منحني مغلق) بالمركز الثاني لمسابقة قصص المحكمين والتي اقامها موقع القصة القصيرة جداً في العراق ٢٠١٤

٤- شهادة تقديرية من وزارة الثقافة ٢٠١٣

٥- شهادة تقديرية من الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب في تكريمها السنوي الخامس.

٦- شهادة تقديرية من نقابة صحفيي كوردستان ٢٠١٢

٧- شهادة تقديرية من المركز الثقافي الكوردي فرع الموصل ٢٠١٠

٨- شهادة تقديرية من فرع الموصل لنقابة صحفيي كوردستان ٢٠٠٥

٩- شهادة تقديرية من البيت الثقافي شعبة بعشيقة ٢٠١٣

١٠- شهادة تقديرية من مركز لالش الثقافي والأجتماعي / بعشيقة ٢٠١٣

١١- شهادة تقديرية من الملتقى الثقافي الأيزيدي ٢٠١٣

١٢- درع مجلة زهرة نيسان ٢٠٠٩

١٣- درع مقداد بدرخان للصحافة الكوردستانية ٢٠١٢

١٤- درع البيت الثقافي/ أربيل ٢٠١٤

١٥- درع مركز لالش الثقافي والاجتماعي فرع بحزاني ٢٠١٩

١٦- درع المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكوردستاني ٢٠١٩

***